أدونيس

الهوية غير المكتملة

الإبداع، الدين، السياسة، والجنس

بالتعاون مع شانتال شواف



تعريب: حسن عودة

أدونيس

الهوية غير المكتملة

بالتعاون مع الروائية الفرنسية: شانتال شوّاف

تعريب: حسن عودة

الهوية غير المكتملة

تأليف: أدونيس

بالتعاون مع: شانتال شواف

عرّبه عن الفرنسية: حسن عودة

لوحة الغلاف للشاعر: أدونيس

تنفيذ الغلاف: جمال سعيد - إخراج: رفيدا الخباز

الطبعة الأولى - 2005

بدايات

للطباعة والنشر والتوزيع

سورية - جبلة - مجمع الروضة التجاري - هاتف: 833560

دمشق - ص . ب:30833 هاتف: 3222852 - موبايل: 515761 - 093

الاستشارة الفكرية والأدبية: أدونيس

الإشراف العام: أسامة إسبر

الموافقة على الطباعة صادرة عن وزارة الإعلام رقم 78796 تاريخ 2004/12/12

يتحدث إليك أدونيس ، كما لو أنك جالس معه على رصيف مقهى «الفلور» أو مقهى «الدوماغو». أصغِ إليه ، فصوته يحررك. وحين يتكلم تفاجأ بأن العالم يتسع أمامك.

شانتال شواف

الجزء الأول

الفصل الأول

الله

تخلو صوفيتي من المحتوى الديني. إن الله، بمعناه الديني، لم يعد يتكلم، وإن اللامرئي قيل مرة واحدة وإلى الأبد، غير أن اللامرئي، في صوفيتي يتكلم دوماً، وعلى نحو لا نهائي. فكل مبدع إذن، إنما هو متنبىء، وعلى نحو لا نهائي. لهذا ليس في صوفيتي فرق بين الكائن الإنساني وبين ما يسمى الله، حيث نبلغ هنا حالة من الوجد تصلنا بجوهر الكون، متجاوزين كل الحجب وكل العوائق المادية، ويغدو المرء في تلك البرهة واحداً مع الله... وهو ما يمكن تسميته بالاتحاد، أو وحدة الوجود.

ترى، ما الذي ستكون عليه روحانية الألفية الثالثة؟ لعل الأدب، والشعر بوجه خاص، هو الميدان الذي يتحتم علينا أن نبحث فيه، وأن نحدد ما يمكن أن

تكون عليه روحانية جديدة، انبعاث روحي جديد، يبث الدماء في عروق كوكبنا الشائخ.

تقول الصوفية العربية: لا يمكننا معرفة الله بالعقل، ولكنه يُعرف بالقلب. لأن العقل لكونه حداً، فهو محدود أيضاً، وكل ما هو محدود لا يملك أن يفهم اللامحدود، أو أن يدركه. فللإحاطة باللامحدود لا بد من فكر لا محدود.

إن القراءة السائدة للوحي التقليدي تعطي للموحي، أي الله، صورة، يبدو معها كما لو أنه يجهل ما هو لانهائي مخبوء داخل الإنسان وداخل الكون.

اقرئي الوحي في الكتب المقدسة، فأنت لن تجدي الله متجلّياً. الكتاب المقدس ليس الله، ليس هو الإله الروحي، لأن الإله يتجاوز ويسمو على الكتب التي تخبر عنه. يبدو الدين، في ممارسته العملية أشبه بالنقود الروحية، على غرار النقود المادية التي تقود عالم التجار. وبوسعنا القول بأن هذا الدين ـ النقود يقود العقول، وهو يطفئها بدل أن ينيرها.

هناك قراءة دينية معينة تضع لله حدوداً، وتسجنه داخل خطاب يُفقره ويحوله إلى مجرد وظيفة.

غير أن الله، بما هو معرفة، يتجاوز كل الخطابات، وكل النظم. إنه متجاوز لكل وحي. لأنه اللامتناهي المنفتح دائماً وأبداً على لاتناه أعظم.

ذلكم ما يفكر به الصوفيون حول الخطاب الذي يصوغ نظرية الإله.

التقت بلقيس، ملكة سبأ، في اليمن، بالملك. ذهب الملك النبي سليمان إليها ليطلب منها الزواج. وخاض الاثنان في حوار، وكان أحد الأسئلة التي طرحتها عليه هو: «ما لون الرب؟» فلم يجب سليمان، لأنه لم يعرف الجواب. كانت تسخر منه كما أعتقد. تلك طرفة من زمن سليمان.

في صوفيتي، تُعطى الأهمية المباشرة والقصوى للجسد بوصفه مثولاً متصلاً مباشرة بالأشياء، وبالعالم، وبالنور. يقول أحد الصوفيين: من أجل بلوغ اللامرئي، أي الله، لا بد من المرور بالجسد. وأكد على الجسد الأنثوي. لأن العالم الذي لا يؤنث لا يُعَوَّل عليه.

حينما يتخذ الله في نظر الناس أنموذجاً ثابتاً، فمن الممكن القول بأن العالم بأسره يجازف بأن يتخذ طابعاً مماثلاً له لدى هؤلاء الذين يؤمنون به إيماناً حصرياً. ولعل هذا هو ما يفسر الحرب بين الأديان منذ العصور الغابرة وحتى يومنا هذا، والتي لم ينطفئ أوارها قط. إنها تتخذ، بالطبع، أشكالاً مختلفة، ولكنها ما توقفت يوماً، وما زالت رحاها دائرة. تنظر الأديان إلى الله على أنه مسألة عظمى للغاية. ويزعم كل دين بأن إلهه هو الأفضل. كما يشن كل دين الحرب دفاعاً عن إلهه. غير أن الله قادر، وحده، كما أعتقد، على الدفاع عن نفسه. لذا فهو ليس بحاجة إلى جنود ودبابات، وحاجته أقل أيضاً إلى انتحاريين وفدائيين للدفاع عن نفسه. ومع ذلك فإن العنف مرتبط بالتصور السائد عن الله. وهذا العنف يُعتبر مقدساً، تقريباً في نظر أصحاب الديانات التوحيدية. فكل شيء لديهم عبارة عن عنف، وهم يفترضون بأنه إلهي، ولكن هذا الافتراض هو ثمرة العنف. وكل هذا يتجلى في الممارسة، ويتجسد في الواقع ضد الإنسان، وبوجه خاص ضد المرأة. يغدو المرء بالغ العنف حينما يقال له، باسم الإله، لا تفعل هذا، لا تقل هذا، لا تفكر في

هذا... ذلكم هو جذر العنف وبدايته، وبعد ذلك يأتي العنف السياسي والاجتماعي. فإذا لم نُعد التفكير بأساس هذا العنف، ولم نتبين بأنه متجذر في الدين، فلن يكون بمكنتنا التخلص من العنف ولا من الحرب.

إن مفهوم الحظر يتضمن معنى العنف. ورغم أن العنف سائد في سائر المجتمعات، فإن هناك فروقاً بالطبع، بين مجتمع وآخر، ولكنها فروق في الدرجة لا في النوع.

مهما يكن من أمر، فإن المحظور الوحيد الذي ينبغي مراعاته لمواجهة العنف والذي لا يلتفت إليه أحد هو: «لا تقتل».

الفصل الثاني

ظلال لونية عربية

سأطلق العنان لنفسي في نقد العرب، ونقد نفسي. والنقد مباح، شرط أن يكون منصفاً. حينما نتكلم عن العرب علينا أن نفرّق بين العرب، بما هم أفراد، وبما هم كائنات إنسانية، وبين العرب بوصفهم مؤسسة، أو بوصفهم نظاماً.. الخ. وهذا يصحّ على أي شعب من الشعوب يجري الحديث عنه ونقده. ليس النقد نقداً للفرد، وإذا ما نقدنا فنحن ننقد كل ما هو ممأسس. خلاف ذلك، فإنني إذا ما نقدت العرب، كبشر، أكون معادياً لنفسي.

ثمة شاغل يساورني دائماً هو تقويض الأبوّة عندنا، حيث الأبوة هي التجلي الاجتماعي للإله، وحيث تلعب، داخل المجتمع دوراً سلبياً خصائياً. فإذا ما حاولت التخلص من وحدانية الإله، فعليّ التخلص

أيضاً من وحدانية الأب. لأن الأبوة قد قتلت الأنوثة أيضاً، بطريقة ما. فليس للمرأة وجود في ظل هذه الأبوة الاجتماعية. ولو كانت الأبوة صالحة لما عدنا بحاجة إلى تسميتها بالأبوة، والواقع أن هذه الأبوة الصالحة شائعة، ومحتشمة، على مستوى الحياة وعلى مستوى الصداقة. وهي أبوة إنسانية، وليست لا إنسانية على غرار الأبوة الأخرى.

العراق، هو خطيئة الأب. الأب الذي يتجسد في المسؤول. لم يعد الأب يرى سوى ذاته. لقد نصّب نفسه أباً مطلقاً. ولفرط ما يحب أبناءه المزعومين، لم يعد يراهم، لقد مزّقهم شر ممزق. جميع الزعماء العرب آباء، آباء سيئون. آلهة صغار. لعل بمقدورنا أن نعثر هنا على أحد العناصر الجوهرية في الحضارة العربية. لذا ينبغي، قطعاً، تدمير هذا الحضور الكلي للأبوة الكليّانية، داخل المجتمع العربي.

يبدو الأمر مختلفاً في أمريكا. ثمة ها هنا أبوة الهيمنة، أبوة القوة. فالأبوة الأمريكية هي تلك السلطة المطلقة التي تتطلع إلى أن تقود العالم بأكمله. إنها أبوة التسلط. غير أن الأبوة البدائية، بالمعنى الذي ترتديه الأبوة في العالم العربي لا وجود لها. ثمة في قلب

المجتمع الأمريكي علاقات أخرى. ولكن ليس هناك رئيس أب، مثلما لدينا نحن، رئيس ـ إله صغير. غير أن الولايات المتحدة هي البلد الذي أصبح هو نفسه إلهاً صغيراً للبلدان الأخرى. وهذا يعود، بالنسبة إلى الأمريكيين إلى الروح الوطنية، أما عندنا، نحن سكان العالم العربي فمرد ذلك إلى الكليانية، إلى استبداد قديم مغرق في القدم.

الأبناء والبلاد والجيش والحاضر والماضي تدور جميعها حوله، حول الأب ــ الرئيس فإذا انتصر الشعب، يكون هو، الأب، الذي انتصر، أما الشعب فليس سوى وسيلة. ليس الشعب هو الذي أحرز الانتصار، وإنما الرئيس ــ الأب. فليس ثمة انتصار بدونه. وبالمقابل، فإن حدثت الهزيمة، فليس الرئيس هو المسؤول عنها. تلكم هي بنية الشعب العربي. ولهذا فإن هذا المجتمع لم يعرف الديمقراطية طوال تاريخه. إن العالم العربي هو عالم بطريركي، يستمد المواطنون فيه قيمتهم بحسب صلاتهم مع الزعيم، «الأب»، وبحسب خضوعهم له. يمكنكم مقارنة علاقة المخلوق بالله، بعلاقة الوطن بالله، وعندها تتوصلون، بيسر ووضوح إلى فهم علاقة المواطنين بالرجل الذي يحكمهم. إنه الخضوع ذاته. لقد بدأت العائلة تتقوض

من الداخل، غير أن بداية هذا الانهيار الداخلي، يعتبر علامة مشجعة على إعادة بناء المجتمع الذي لا بد له من أن يتفكك من الداخل، كي يتجاوز ضلالات الأبوة القديمة. ذلكم هدف أساسي من أهداف التطور. يقود إلى بناء مجتمع ديمقراطي. ولكن الغربيين، بوجه عام، ومنذ ماض ليس ببعيد أيضاً، وحتى بعد نهاية الاستعمار لم يقفوا على الإطلاق إلى جانب الديمقراطيين العرب، بل كانوا يفضلون عليهم الأصوليين، والمعادين للديمقراطية، والدكتاتوريين. كانوا يدعمون الطوائف والانقسامات. وكان هذا ملائماً دوماً للأجنبي. فتخلف بلداننا مؤات تماماً للتطور الغربي.

لقد كان ذلك أكثر سهولة ويسراً، بالنسبة إلى الغرب. وهكذا استفحلت المعضلة ولم تجد يوماً سبيلاً إلى الحل. ومردّ ذلك عائد إلى أن البلدان العربية الديمقراطية حقاً، والعلمانية والتقدمية لن تحابي قط مصالح بعض الغربيين، وعلى الأخص منهم أولئك الذين لديهم نزعات إمبريالية، وهو ما سيغير جميع العلاقات، أو طبيعة العلاقات ذاتها بين المجتمعين بحيث لن يعود لأحدهما التفوق على الآخر.

بالنسبة إلى البلدان العربية، تُعد مصر هي المجتمع الأفضل، إن تكلمنا بصورة نسبية. فهي تحتفظ

بتقاليد دولة ضاربة في القدم، وبهامش من الديمقراطية، أما لبنان فهو الطائفية بعينها، لأن دولة مؤسسة على الطائفية ليست بدولة، وإنما مجموعة من القبائل. يصنّفك الدستور، في لبنان بحسب انتمائك إلى طائفة من الطوائف. وهذا هو الأسوأ. فالكائن الإنساني، بما هو كائن إنساني في ذاته غير معترف به في لبنان. فإذا كنت مسيحية فلن تنالي قط وظيفة مخصصة لامرأة مسلمة، لأن مزايا المواطن يجري تحديدها في لبنان من خلال طائفته لا ثقافته. وماذا يعني إنسان لا يملك قيمة وجودية خارج طائفته أو عشيرته. أما تلك الديمقراطية المخادعة في لبنان فهي من أجل اقتسام الجبنة فيما بينهم. وبغية اقتسام تلك الجبنة ينبري أشخاص ليقولوا لك: أنت تأخذين هذا، وأنت تأخذ ذاك. ليس هناك مواطنون لبنانيون. فأن تكون مواطناً لبنانياً، فهذا معناه قبل كل شيء أن تكون مسيحياً أو مسلماً، وهو ما يحط من شأن الثقافة، والكائن الإنساني. كما لو ينبغي لمواطن فرنسي أن يكون بروتستانتياً أو كاثوليكياً. أما فيما يتعلق بالحداثة في لبنان فإنها حداثة ظاهرية. فلبنان، مثله مثل البلدان العربية الأخرى، دولة دينية بالأحرى. ولا تتوانى إسرائيل عن تعزيز الدين في الشرق الأوسط، ليس باعتباره تجربة روحية ـ فليس لنا

مطعن على ذلك ـ ولكن باعتباره مؤسسة وقانوناً، وهو ما يشكل إحدى المعضلات الأشد استعصاء على الحل في الشرق الأوسط. أعني المعضلة العالمية المتمثلة في الأصولية، وما تحمله كل أصولية من خصوصية متعارضة مع العامّ الشامل، وبالتالي مع الوئام فوق كوكبنا، ومع الأخوة الإنسانية.

إن السياسة الغربية في الواقع ملائمة للأصولية، لأن هذه السياسة تعرف حق المعرفة ما تريده الأصولية من الغرب، والتفاوض مع الأصولية بالغ اليسر والسهولة. وهو مفيد للسياسة الغربية الداخلية، وعلى الأخص في مسألة الهجرة وأنا أشدد على القول، بأن الغربي يفضل أن يجد أمامه مستبداً، أو ظلامياً عربياً، ولكنه يرتبك أمام ديمقراطي مثله، وأمام فكر منفتح مثل فكره، أو محاور في مستواه. لا يرغب الغربي أن يرى في العرب سوى تابعين، سوى أناس ينبغي عليهم أن يتبعوه ويقتفوا خطاه. ولكن حين يكون بوسع أحد أن يحاوره محاورة الند للند. أو أن يتجاوزه، فإن ذلك يضايقه. ثمة أفراد عرب عديدون تجاوزوا بأشواط، غربيين عديدين، بوصفهم أفراداً، وعلى كل الأصعدة. تلك بديهية تغنينا عن ذكر أمثلة عليها. ما نريده من الغرب إذن، هو مد يد المساعدة

ودعم الديمقراطيين والعلمانيين العرب. فالغرب المنفتح لا يساهم قط في خلق مجتمعنا المنفتح الخاص بنا. ولكنه يقدم الدعم، إلى حد معين، للأصوليين كما لو أنه راغب فعلاً بأن يظل المجتمع العربي يراوح في رجعيته وظلاميته، وأن يتأسّن العالم العربي خارج التاريخ.

أجل! كل شيء يحتاج إلى التغيير في مجتمعنا. نحن نعيش، أنا ونظرائي، في مجتمع يتوجب تغييره من ألفه إلى يائه، وعلى جميع الأصعدة وأنا أضعه كلياً موضع البحث والتساؤل. ولكني لست أملك سوى الصداقة والحب. هناك إذن عمل هائل لابد من الشروع به، بشرط أن يكون كل واحد منا حراً في رؤيته للأشياء وفي التصرف بحسب وسائله في التعبير، وبحسب اهتماماته.

لفهم شعري بنحو أفضل، لا بد من رؤيته من هذا المنظور، وملاحظة أنني أعيش في مجتمع ينبغي إعادة بنائه كلياً، مجتمع أضع ثقافته وسياسته موضع البحث والنقاش. مجتمع لا أجد فيه ما يستحق الدفاع عنه، ولا تبنّيه. إنني أعيش في هذا المجتمع كما لو كنت أعيش في الدرجة صفر، اجتماعياً وسياسياً. إنها

عنه، ولا تبنّيه. إنني أعيش في هذا المجتمع كما لو كنت أعيش في الدرجة صفر، اجتماعياً وسياسياً. إنها درجة الصفر بالمعنى الذي يحتاج فيها كل شيء إلى إعادة تحديد. وإلى إعادة نظر، وإلى إعادة عمل. ذلكم هو الموقف الكامن في خلفية شعري، والذي يوجه ويلهم رؤيتي الشعرية، والتي ليست هي إذن، أدبية ولغوية حسب. ما يكتسي أهمية هنا هو أن تكون القصيدة جوهرية، وهي لن تكون كذلك إلا إذا أسهمت في خلق مجتمع، وخلق حضارة عظيمة، وثقافة رفيعة. فالشاعر، إنما هو الفنان الذي ينظر إلى الفن على أنه فعل، فعل حياة. ليس ثمة شعر حي إلا إذا أبدعنا قصيدة جديدة. وإذا لم يتجدد الشعر فهو شعر ميت، يكتب بلغة ميتة، لن يكون لها صلة بالكلام ولا باللغة الحية المتحركة. أن نخلق من الشعر الأعمق غوراً، مجتمعاً جديداً، وثقافة جديدة، وعلاقات جديدة مع الآخر، تلكم، لعمري، هي المهمة الملحّة. وهذه الإلحاحية هي التي تلهم شعري. وهي التي تسكنني ككاتب. إنني أحاول بكل بساطة أن أخلق الصداقة، وأخلق الحب، أحاول القيام بخلق علم جمال جديد.

إنه لمن المشين، على الصعيد العالمي ترك الأطفال يموتون. ومن المشين على الصعيد العربي ترك شخص

دنيء يقود هذا البلد المسمى العراق. من العار على العرب أن يوجد بينهم زعيم بهذا المستوى. لقد قتل صدام ألوف المعارضين، ولم يكف عن القتل يوماً. قتل كل من كان يشتبه به دون أية دلائل، قتلهم مباشرة وعلى الفور. ولهذا فإنه قتل السلطة منذ أمد بعيد. ذلك هو الجحيم حقاً. وقد أفضى كل هذا إلى الحرب، إلى الوضع الحالي المريب والمضطرب. لم يبق إذن، إن توخينا الحفر في الأعماق، سوى الشعر. فبالشعر نتحرك. وهو وحده من يستطيع ذلك. نتحرك وسط حقل الحروف والصور، نحرث، نحرث عميقاً في الصور وفي موطن الخيال. لأننا ما أن نحاول حرث الواقع حتى تُزهق أرواحنا، وتُجتث جذورنا. فأنت مثلاً إن فعلت شيئاً ضد الواقع الدكتاتوري، فلن تُقتلي وحدك، بل سيُقتل معك أبناؤك وإخوتك، وستعاملين أنت وأبناؤك وإخوتك كأشخاص نجسين مدنسين. ففي رأي الطاغية المستبد، يتوجب تطهير المجتمع من الأشخاص الذين يوجهون إليه نقداً. يتوجب تطهير الشعب، وبالتالي يتوجب قتل الأشخاص النجسين. وهؤلاء الأشخاص هم، بوجه التحديد، الذين قالوا لا للأب السيئ. صحيح أن بعض التغيرات

تظهر الآن على السطح، ولكن ليس ثمة تغيرات في العمق. لقد عزز الدين السلطة والجمود منذ بداية المجتمع الإسلامي، إذ سرعان ما وطد الإسلام دعائم البنية الأصلية، ولكنه بدلاً من أن يقول «القبيلة» قال «الأمة». ومنذ العصور القديمة كانت تلك الهيمنة الأبوية راسخة في مصر وآشور وسائر بقاع العالم العربي دون استثناء. هذا العالم ليس عالمي، إن عالمي هو عالم رؤيتي للحياة، وهو عالم آخر مختلف كلياً.

لقد بنى العرب، فيما لو خضنا في التاريخ، مجتمعاً غارقاً في حروب متواصلة. فطوال ستة عشر قرناً تقريباً لم تهدأ قط رحى الحرب بين العرب، أو بين المسلمين، وهي ما تزال مستمرة حتى اليوم. ليس بين العرب والأجانب حسب، بل بين العرب أنفسهم. حتى ليبدو الأمر وكأن قوة العرب، طيلة ستة عشر قرناً قد تبددت هباء في نزاعاتهم الداخلية. فما سبب ذلك؟ إنها الأبوة المفرطة المتعسفة: «أنا لا أعترف بالآخر، كل من يختلف عني فأنا لا أعترف به. يتوجب على الجميع أن يرددوا الكلمات التي أقولها، يتوجب على الجميع أن يذعنوا لي، وإذا لم يفعلوا فليس أمامهم سوى النفي أو السجن» وعلى امتداد تاريخنا تقلدت السلطة طغم من

كل صنف ولون. لم يجر قط خلال تاريخنا اقتراع شامل، أو انتخابات ديمقراطية. بقينا دوماً غارقين في مستنقع الحكم المطلق، والسبب يعود إلى أن الدين عندنا مرتبط بالسياسة ارتباطاً وثيقاً. وإذا لم يجر الفصل بين المدني والديني فلن نقطف ثمار الديمقراطية يوماً من الأيام.

الفصل الثالث

السياسة

ليس بوسعي أن أرتبط بنظام سياسي، ذلك أن نظاماً سياسياً يشكّل بالنسبة إلي جزءاً من الواقع، في حين أن طبيعة النظم السياسية عندنا مضادة للواقع. بل، إن هذا الواقع، عندنا، نحن العرب يشكل بالتأكيد جزءاً من النظم. النظام السياسي عندنا أشبه بالله على الأرض. وهذا ما يشوّه كل الروابط، كل علاقات النظام بالناس. يسألونك في نظام استبدادي: هل أنت مع إيديولوجيا النظام أم لا؟ فإذا لم تكوني كذلك فإن مصيرك التهميش، ولن يكون لك الحق بالحصول على وظيفة داخل النظام. إنها القاعدة السائدة، القاعدة العامة في جميع أصقاع العالم العربي، باستثناء مصر، ربما، التي تختلف قليلاً. وحتى بالنسبة إلى الأشخاص الذين يحصلون على منحة للدراسة في أمريكا أو أوربا،

فإن المعيار الأول ليس ذكاءهم، ولا مؤهلاتهم ولا نتائجهم الدراسية، وإنما علاقتهم بالنظام القائم. فإذا كانوا ضد النظام فسيحرمون من المنحة بلا ريب.

يتجذر النظام السياسي العربي في القَبَلية، ولكن هذا النظام يرفع لافتات عديدة. من أمثال: القومية، والاشتراكية، والحرية، ولا أدري ماذا أيضاً. وكل ذلك إنما هو هذر. ذلكم هو الجانب العملي للوضع السياسي في البلدان العربية.

حرصت جميع الديانات على وضع المرأة في خندق الشر. وظلت المرأة دوماً إلى جانب الشر، بينما ظل الرجل إلى جانب الخير، ولست أدري كيف يمكن لهذا الشر أن ينجب الخير. لعمري إنها عقلية مثيرة للسخرية. من المؤكد أن المرأة هي العقدة التي تشد عرى المجتمع. أما الرجل فإنه يمثل، حتى في المجتمعات الحديثة، غازياً للأرض الخصبة. فهو يحتل نواة المجتمع، أعني المرأة. يحتل «قلعة المجتمع». وحين يفكر الرجل، فإنه يفكر كما لو أنه ملك، كما لو أنه غاز محتل. الجميع رعاياه، كل من تبقّى، وعلى رأسهم المرأة. تلكم هي عقلية القرون الوسطى، عارية كلياً، وهي مع ذلك مموهة، ولكنها هي هي من حيث

الجوهر. بل لعلها صارت أكثر قسوة اليوم، لأن تجريد الإنسان من حقوقه، في هذه المرحلة من التطور الثقافي والاقتصادي والاجتماعي غدا أكثر فظاظة وعنفاً، بل أشد تدميراً مما كان عليه فيما مضى.

مما يثير السرور حقاً رؤية امرأة في سلك الشرطة، أو نائبة في البرلمان ولكن كل ذلك، في واقع الأمر، من أجل التمويه، بنحو أفضل، على بؤس المرأة في مجتمعنا الحديث.

لفرط ما يعيش الناس في مجتمع مغلق، فقد غدوا هم أنفسهم مغلقين. ولفرط ما يعيشون في مجتمع دونما ثقافة، غدوا آلات، أو أشياء. إنهم يتشيؤون في هذا المجتمع، أو يغادرونه إذا أتيحت لهم فرصة العيش في بلدان أخرى، أكثر ديمقراطية. إن مجتمعاً حياً لابد له من أن يكون ديمقراطياً، أي أن يكون تعددياً، حيث الاختلاف يشكل جزءاً مكملاً للمجتمع. من دون ذلك، فإن أي مجتمع لن يكون مجتمعاً حقيقياً بالفعل. كل ما يمكننا قوله عن المجتمع العربي هو أنه يتطلع إلى أن يغدو مجتمعاً ديمقراطياً وتعددياً.

الفصل الرابع

السلام

أنا أقف مع السلام العادل والدائم. خمسون عاماً من الحرب! هذا يكفي. منذ عام 1948 لم تنطفئ نيران الحرب.

ثمة العديد من الإسرائيليين منحازون إلى معسكر السلام، وإلى إعطاء الفلسطينيين حقوقهم. ولكن السياسة الإسرائيلية سياسة عدوانية. ولذا فهي تقدم السلاح للمتطرفين كي يهاجموا الأشخاص الذين يرغبون بالسلام. سأقول دائماً: إن الشعوب ليست سيئة على الإطلاق، وإنما هناك أفراد سيئون. علينا إذن أن نميز بين العرب وبين النظم العربية، بين يهود إسرائيل وبين النظم الإسرائيلية. ولكن للأسف، فإن الوضع الحالي للنزاع لا يشجع على التقدم في عملية

السلام. هناك دائماً متطرفون من كل جانب. ذلكم هو الوضع، للأسف. هناك طرفة عندنا تقول، بأنه كان هناك رجل حكيم يحب البحث عن الحقيقة.. الخ. وذات يوم عاد من سفر له، فوجد قريته بكاملها قد تبدلت. وحين تحدث عن ذلك مع أهل قريته هاجموه واتهموه بالجنون. ثم فهم بعد ذلك بأن هناك نهراً، كان كل من يشرب من مائه يفقد عقله، وأن جميع أهل قريته شربوا من هذا النهر الذي يسمى نهر الجنون. وهكذا فقد حُكم عليه، هو، الرجل الحكيم، بأن يغدو مجنوناً لأنه كان الحكيم الوحيد. وقد دفعه ذلك إلى أن يشرب من ماء النهر، مقلداً الآخرين كي يغدو مثلهم. وهكذا، فنحن نجازف جميعاً بأن نصبح جزءاً من هذا الجنون المطلق.

الفصل الخامس

العرب والغرب

لا يجوز للغرب التعميم بالطبع، والقول بأن العرب جاهلون مستبدون، معادون للغرب، وأنهم جميعاً إرهابيون. هناك، على العكس، من بين العرب، أشخاص استثنائيون يجسدون الحكمة والاتزان! ينبغي عدم مماهاة المسلمين بالأصوليين، أو مماهاة الشعب بالنظام. فحدوث ذلك إنما يرتبط بالإيديولوجيا، أي بالسياسة، في حين أن هذا ليس هو ميدان المسلم. فميدان المسلم هو الإيمان، وينبغي احترام الإيمان لدى جميع البشر، وأنا شخصياً، كشاعر، أقف ضد الدين بوصفه مؤسسة مفروضة على سائر أفراد المجتمع، ولكنني لست ضد الإنسان الذي يمتلك إيماناً دينياً، بوصفه فرداً. إنني أكنّ احتراماً كبيراً للكائن الإنساني،

وبالتالي لإيمانه الديني، بشرط أن لا يتحول هذا الإيمان إلى قانون عام، لأن المجتمع ينبغي أن يكون مدنياً، تحكمه قوانين مدنية تحترم التنوع والاختلاف والتعدد. الإيمان الديني شأن فردي في الحقيقة، شأن ذاتي خاص. وكل فرد حرّ في أن يكون له إيمانه الديني. من الممكن الإيمان باللامرئي أيضاً، دون أن يكون المؤمن به صوفياً. إن الحرية مفهوم حافل بطيف من الفروق لا بد من مراعاتها بمزيد من الدقة. بالنسبة إلي، فأنا صوفي ملحد، تقوم صوفيتي على قاعدة من العناصر التالية: أولاً، إن الواقع كلي، فما يظهر وما يخفى في العالم هو ما نسميه الواقع. ثانياً: لا يعبّر الظاهر عن الحقيقة، ولكنه ربما يعبّر عن الجانب السطحي والمؤقت والعابر من الحقيقة. فللتعبير عن الواقع ينبغي رؤية الجانب الخفي أيضاً. ثالثاً: ليست الحقيقة جاهزة مسبقاً. يتعلمها الجميع، مثلما يتعلمون في كتاب. ولكن الحقيقة لا توجد أبداً في كتاب، وإنما في الوجود، وفي الحياة، وفي التجربة. إنها إذن بانتظار الكشف عنها دائماً. وهذا يعني أن العالم ليس ناجزاً على الإطلاق. فالعالم في عيد ظهور دائم، في تجلٍ دائم. إنه تجديد متواصل للصور. للعلاقة مع الكلمات ومع الأشياء. الهوية ذاتها إنما هي

خلق. فأن نكتب العالم ليس معناه أن نصفه أو أن نعبّر عنه مثلما هو. أن نكتب العالم والوجود، يعني أن نخلق علاقات جديدة مع الكلمات ومع الأشياء. لا تعبر الكتابة، ربما، عن الكائن الإنساني أو عن الوجود، لابد إذن من إعادة التفكير في الكلمة التي نعبر بها. إن كتابتي لا تعبر عني، إنها تكملني، تجعل مني كائناً أكثر كمالاً.. إنها لا تعبر عني، لأن كلمة ما لا تعبر قط عن شيء، فكيف يمكنها بالأحرى أن تعبر عن الكائن الإنساني؟ تعبر الكلمة عن المظاهر، عن المظاهر حسب. وذلكم هو الشكل من دون المضمون. أما كتابتي فهي استمرار لوجودي. إنها شخصي الآخر. الاتجاه الذي يعيد الاتصال باللامرئي. على هذا الصعيد، فإن العالم واحد، الغرب والشرق ليسا منفصلين. تلكم هي الصوفية التي أؤمن بها. وها هنا أكون صوفياً. الكائن واحد. والمعرفة والعلم والفلسفة إنما هي وحدة لا انفصام لها.

كان الشرق مصدر النور، ثم غدا مع الديانات التوحيدية، وعبر ممارستها، منبعاً للظلام والعنف.

بهذا المعنى، فإن الغرب اليهودي ـ المسيحي ليس سوى شكل للشرق، شكل مموه ومزركش بأدب زاخر

من التسامح. أما أولئك الذين دأبوا على أن يروا في الشرق، الشرق الملهم، الشرق المبدِع، والذين دأبوا على أن يروا فيه النور، من أمثال هولدرلن ونوفاليس وغوته ورامبو ونيرفال فهم لا يمثلون الغرب. لأن رؤيتهم للشاعر العظيم في الغرب لم تكن مقبولة في جوهرها. فالغرب السياسي فضّل، بكثير من الابتذال، المطامع الاقتصادية والاستراتيجية.

علينا أن نتذكر بأن الغرب، منذ الحقبة الإمبريالية العثمانية التي كانت ظلامية حقاً قرر الرد على الخطاب الإسلامي. كان آل عثمان يقولون عن الغربيين بأنهم متخلفون، وبعد سقوط العثمانيين استلم الغربيون الدور ذاته، مرددين الأقوال نفسها: المسلمون متخلفون وبرابرة، ونحن الغربيين: نحن المتحضرون، نحن الأكثر إنسانية. حينئذ غدا الشرق هو الآخر، المتخلف. وإذا ما امتلك شيئاً قيّماً فهو قد جاء منه، أي من الغرب. وغدا الغرب هو المعلم للشرق، بعد أن كان الشرق معلمه. لم يكن ذلك سوى تبديل للدور. ومع الثورة الصناعية في أوربا أضحى الغرب إمبريالياً بدوره. وأضحى الشرق هو المحتل والمستعمر. ومنذ ذلك الحين لم يتغير شيء في عملية استيلاء الغرب على السلطة، إلا شكلياً، ربما كان الغرب يقتل

الشرق ويخنقه بحبل من حديد، وقد دأب على خنقه حتى الآن، ولكن بحبل من حرير، رغم أن الحصار والحرب على العراق ليس فيهما أي شيء من نعومة الحرير. وماذا يعني حبل من حرير؟ يعني أن يترك الغرب للشرق استقلالاً مزعوماً، ونظماً متحررة مزعومة، ولكن الغرب هو الذي يدير كل شيء.

حينما أتحدث عن الغرب، فإنما أتحدث عن الغرب الاقتصادي والعسكري، أما حين أتحدث عن الشعر، و الفن، والفلسفة، والإبداع، فإن الحدود تنمحي بين ما يسمى الشرق والغرب، هذا إن وجدت يوماً.

ونحن نتساءل، إذا ما كان رامبو شرقياً أم غربياً؟ إن الإبداعات العظيمة، من أمثال ملحمة جلجامش السومرية، وجلجامش البابلية، والحضارة المصرية، والحضارة الإغريقية، والمبدعين القدماء العظام، الذين هم زينة التاريخ الإنساني، لم يكونوا شرقيين ولا غربيين. كانوا كونيين، كانوا أبناء الأرض العظام، أرضنا الملهمة، كانوا الصوت الإنساني العظيم الذي يضم جميع القارات وجميع المحيطات. يمكننا أن نفهم، من زاوية جغرافية وسياسية، بأن هناك شرقاً وغرباً، ولكننا حين نسعى إلى فهم شرط الكائن الإنساني، إذا حاولنا أن نمنح الإنسان صورة أكثر

إنسانية، بل وأن نسمو به إلى بعد كوني، فإن الانقسام يتلاشى. فهذا الانقسام نابع حالياً من الإرادة الخالصة والمجردة لإمبريالية ثقافية وسياسية، وهو مرتبط بإيديولوجية غربية تدعمها مصالح غربيين من كل صنف ولون؛ كي يظل الشرق سوقاً وفضاء للاستهلاك. من المؤكد بأن الحروب والعلاقات المعقدة الراهنة، بوجه خاص، بين العالم العربي والغرب تكشف عن هوة عميقة بين كلا الجانبين، هوة سياسية على الأخص، وتلعب إسرائيل دوراً خطيراً في هذا المجال.

ترى، ما هي خصوصية الغرب حين يدعم الانقسام إلى شرق ـ غرب؟ إذا كانت هذه الخصوصية هي التقنية فإن هناك العديد من البلدان الشرقية تجاوزت بعض البلدان الأوروبية، وبلغت التقنية لدى بعضها مستوى التقنية الأمريكية، وهو ما يثبت بأن التكنولوجيا لم تعد معياراً لتحديد بلد شرقي أو بلد غربي.

هل ستكون الديمقراطية إذن هي المعيار الأكثر حسماً؟ ولكن ثمة بلدان شرقية ديمقراطية، فاليابان ديمقراطية، والهند ديمقراطية، كي لا نذكر سوى

هذين البلدين، بينما نرى كثيراً من الاستبداد في البلدان الغربية.

باستثناء القوة العسكرية والاقتصادية، إذن، وباستثناء السوق، على ماذا يعتمد هذا التقسيم؟

ما من أحد يجادل في حقيقة أنه حين يجري الحديث عن إبداعية الفن، فإن الشرق يعيش في حضن التراث الغربي، والأمثلة كثيرة: ديلاكروا، الرواية الغزلية، شعر التروبادور، فن العمارة الروماني، فن العمارة القوطي، الرومانتيكية..

ونحن لن نخدع: فليست العولمة هي التي تلغي الحدود قطعاً، والتي ستعوّض ما سببه الانقسام إلى شرق وغرب من عسف. وإذا كانت العولمة تمثل وحدة جديدة بين الشرق الغرب، فإنها وحدة مزيفة، لأنها وحدة يمليها الطرف الأقوى والأغنى. ذلكم كل ما في الأمر.

ينظر البعض إلي بوصفي عدمياً، لأنني أضع موضع التساؤل كل شيء وحتى التاريخ.

غير أن ثمة ثقافة جديدة ظهرت إلى النور. فالرياضة، والحاسوب، والرسوم المتحركة، والصورة، والتصوير الفوتوغرافي، والإنترنت، على الأخص، غدت

عناصر هذه الثقافة الجديدة التي بزغت شمسها في الغرب. ذلكم نوع من ثقافة يتبدى فيه، لأول وهلة بأنه لم يعد ثمة مكان للرؤية العظيمة. ولكن، كيف سيولد من هذا الواقع المتسارع أدب عظيم، سرد قصصي عظيم، شعر عظيم؟ علينا أن نتريث قبل أن نحكم. لقد تم الشروع في الغرب، كما يبدو، ببدائية، جديدة، بالمعنى الذي لم يعد يعمل فيه من أعضاء الجسم سوى العين والأذن، أما بقية الأعضاء فقد انتهى دورها. العين من أجل التلفاز، والأذن لسماع الموسيقى والأغاني وموسيقا الراب... لقد جرى قطع الشريان الذي يغذي الحياة في هذه الثقافة التي تبثها وسائل الإعلام. لعلنا، مع ذلك، نقف على عتبة حضارة جديدة، ما نزال نجهل جميع أشكالها الممكنة. فالناس اليوم، و الشباب بوجه خاص، لا يصبون إلا إلى التسلية، وما عادوا يرغبون بالقراءة. إن رواية عظيمة لا تعني لهم شيئاً. تلكم هي حالنا اليوم.. إذن، ما جدوى كتابة الشعر اليوم لهؤلاء المنصرفين عن القراءة. من الممكن أن نفهم اليوم لماذا أصبح الشعر نادراً، أكثر فأكثر في الغرب، ولكن ماذا عن الغد؟ مزية الشعر، والشعراء هي أنهم لا يفقدون الأمل على الإطلاق. أن نقرأ فهذا يعني أن جسدنا هو الذي يقرأ،

دمنـــا، مخيلتنـــا. القـــراءة إبـــداع. إن مبـــدعاً عظيمـــاً يقتضي قارئاً عظيماً. كما أن قارئاً حقيقياً هـو مبدع حقيقي. أما هذه الثقافة الغربيـة الإعلاميـة الجديـدة، فلـم تعـد تقـدم أي إبـداع، ولا أيـة نتاجـات أدبيـة، لأن القراء ما عادوا يلعبون فيها دورهـم. ثمـة حاجـة ملحـة مـن أجـل المـستقبل علينـا إذن إعـادة اكتـشافها. إنهـا الحاجة إلى أدب معاصر، ضمن منظور ثقافـة حقيقيـة أصيلة للألفية الثالثة، تلبي تطلعات الغرب والشرق.

الفصل السادس

الثورة

بعد الثورة المادية التي قامت، بنحو جوهري، على أساس اقتصادي، نجد أنفسنا اليوم بحاجة إلى ثورة إنسانية تقوم على أساس كلية الوجود، بجوانبه المرئية وغير المرئية.

يقول هيراقليط: «لا يمكن عبور النهر مرتين» فالعالم يتغير باستمرار. لقد فتح ماركس أفقاً عظيماً للفكر الحديث. وتميز القرن العشرون بأفكار قائمة على الاقتصاد. ولكن هذا القرن سجل انعطافاً خطيراً، فثمة ردة إلى الدين، وعلى الأخص في منطقتنا العربية. لذا فنحن بحاجة اليوم إلى مفكرين جدد للإحاطة بالوضع الراهن للفكر الديني، وللفكر باختصار. بحاجة إلى ثورة أشد اتساعاً، وأعمق

شعرياً، وأسمى إنسانياً، وأشمل عالمياً من الثورة الماركسية. ما يهمني في فكر ماركس ليس «الصراع الطبقي» ولكن فكرة زوال الدولة. يتحتم إلغاء مفهوم الدولة، مثلما يجري تصورها اليوم. إن الكائن الإنساني يملك القدرة دائماً على الإبداع، ولا بد له من أن يبدع تصوراً آخر يحل محل مفهوم الدولة ـ السلطة من أجل إدارة شؤون المجتمع. أما الأفكار الماركسية حول الأدب و المجتمع والاقتصاد والصراع الطبقي فقد شاخت وولى زمانها.

ما من شك في أن ثورة جديدة أضحت ضرورية إذن. ثورة تضع إبداعية الإنسان في المركز. وترى الكون والعالم بوصفهما بلداً واحداً، ومجتمعاً إنسانياً واحداً. وتحترم كلياً، في الوقت ذاته خصوصيات الشعوب، وهوية كل ثقافة من الثقافات. نحن نشعر بالحاجة الماسة إلى هذه الثورة الجديدة، وخاصة في منطقتنا، في الشرق الأوسط. حيث تجري تلك العودة المشؤومة إلى الدين، من كلا الجانبين: اليهود والعرب. والتي لا تقوم على الانفتاح نحو الآخر، ولكنها، على العكس، تحبس الناس داخل سجن تقريباً. يبتعد الناس داخله

بعضهم عن بعض، ويعيشون في عزلة تامة. وهذه العودة إلى الدين إنما هي عودة ارتدادية، عودة إلى القانون الديني، وإلى الإقصاء، وإلى الأسطورة المشوهة المنفصلة عن اللوغوس (العقل). وعليه فإن الأمر الجوهري يعتمد على النجاح في إقامة تحالف بين الميتوس (الأسطورة) واللوغوس، بعيداً عن كل الديانات والرؤى الدينية. لم يعد الدين مفيداً اليوم، لم يعد صالحاً من الناحية الاجتماعية، لذا يمكن للمجتمع التحرر منه. ولكنه ربما يكون مفيداً للفرد. ورغم ذلك فإن الدين علامة على تقوض أركان المجتمع. فهو يشبّه المجتمع بقبيلة بدائية. ذلكم دين قَبَلي داخل مجتمع السيبرنيتيك (الضبط). في الحقبة السيبرنيتية لم نعد بحاجة إلى الدين. ولكن حقبتنا الحالية. حقبة العولمة بحاجة إلى الحب، وإلى الصداقة، وإلى الشعر. إلى مجتمع كوني يحترم جميع الاختلافات، وجميع الهويات الثقافية.

نشهد اليوم أيضاً عودة إلى الروحانية.. ونحن نرى ذلك من خلال شغف الغربيين بالبوذية. وأنا أعتقد بأن هذه العودة مضادة للدين، لأن الناس يبحثون في البوذية عن حرية فردية.

سُمي المسيح ابن الله، وكان محمد وموسى مبعوثين من الله، أما بوذا فلم يكن لديه ادعاء من هذا النوع. أعتقد أن رواج البوذية في الغرب لا يدل على عودة إلى الدين، ولكنه يشي، على العكس، برفض الدين. إن العودة إلى الروحانية لا تعني، بالضرورة، عودة إلى الدين، وإذا لم تكن الصيغ والأشكال الروحانية دينية فعلاً، فإن الشعر أحد هذه الأشكال، بل إنه الشكل الجوهري.

ثمة ثلاث معضلات، أو ثلاثة أسئلة، لا بد لكل إنسان من الإجابة عليها: سؤال الوجود، وسؤال الأخلاق، وسؤال الصيرورة، أو الموت: بعد الحياة، ماذا يوجد؟

لقد انبثقت الروحانية من السؤال الأخير المطروح على الكائن الإنساني: ترى ما الذي سيصير إليه؟ هل هناك شيء بعد الموت؟ أين سيذهب بعد الموت؟ إن مشكلة الموت هذه هي منبع كل مسعى روحي. وقد شكلت أديان التنزيل جزءاً من الإجابة عنها. وفي اعتقادي فإن الأديان أفسدت الروحانية بعد أن جرى تبليغها بنحو زجري، بوصفها مؤسسات. ومع مرور الزمن غدت عقيمة ومتحجرة. ولهذا فإن من الملحّ

تجاوزها وإيجاد أشكال أخرى للبحث الروحي. إن تعدد النِّحل اليوم يتفسر عبر هذا النزوع نحو البحث والتجاوز، فالناس تائهون، يخبطون خبط عشواء، ولكنهم يبحثون.

بالنسبة إلي، فإن العولمة هي عقيدة التطور. ومهما يكن من أمر، فإن الفرد عاجز عن أن يفعل شيئاً حيال العولمة. وماذا يمكن للمرء أن يفعل وحده لإيقاف صخرة متدحرجة من القمة نحو الأسفل؟ ليس من الممكن بالتأكيد إيقاف الصخرة المتدحرجة. بل لا بد من فهم انحدار الصخرة، وانتظار سقوطها بالكامل، بغية الخضوع لقوانين التاريخ. ولكن حين نرى هذه الصخرة وهي تتدحرج (أي صخرة العولمة)، يتوجب علينا التأكيد على القيم المؤسِّسة للكائن الإنساني المحافظ على هويته. وهذه القيم هي الإبداع، والشعر، والحب، والصداقة، والجمال.

ليس بالوسع أيضاً، إهمال الجانب الإيجابي للعولمة. فأن نتعولم، فهذا يعني إلغاء المسافات، وجعل بلادنا المتنازعة قرية واحدة، وأرضاً واحدة. وتلكم هي صيرورة الإنسانية.

غير أن الناس، بمعنى من المعاني، أشباه عبيد. فهل يملكون فرصة للتمرد؟ لا مفر من التحمل، ولكن إلى

متى؟ لا أدري، ولكن لا بد لنا من أن نتحمل هذه الصخرة المتدحرجة من قمة التاريخ.

إن الولايات المتحدة، أو روما المعاصرة، تمسك بيديها آلة النقود. وهي تفعل الآن ما تشاء، على الصعيد العالمي. وخلال ربع قرن، إما أن نتمرد ضد هذه السلطة الوحيدة، وإما أن نغرق في ظلام دامس.

الفصل السابع

الأدب

بعد الرواية الجديدة، يظهر اليوم إلى النور تيار أدبي جديد، يضم أعمالاً أدبية هي بالتأكيد أشبه بتقارير عن الحياة اليومية. لم يعد هناك مسافة بين الكلمات والواقع، لم يعد هناك، بالتالي، أدب يصبو إلى رؤية العالم وفهمه بصورة أفضل. غير أن من الضروري في الأدب خلق مسافة بين الكلمات والأشياء، لأن لصق الكلمات بالأشياء أشبه بمن يلصق وجهه بالمرآة، فلا يعود يرى أي شيء.

إذا ما ألصقنا الكلمات بالواقع أو بالأشياء لا يعود بوسعنا رؤية المرآة ولا الوجه، لا الواقع ولا الكلمات. بل إننا نعجز عن رؤية أي شيء. وعليه فإن الأدب الحقيقي إنما هو كشف واستبصار.

ينتابني الجزع من هذا الأدب ـ الواقع، الزائف الذي ينتشر اليوم، على غرار القول: ذهبت إلى المقهى،

وشربت كذا، ورأيت أشخاصاً... فمن يقول هذا، إنما يروي ما شاهده، وما حدث أمامه، فما جدوى ذلك؟ إنه إعادة إنتاج للابتذال الذي تحفل به أيامنا كلها. والحياة ليست بحاجة إلى إعادة إنتاجها من خلال اللغة. إنها بحاجة إلى أن تكون مفهومة من الداخل. وهذا يعني خلق هذه الحياة وإعادة خلقها. ليست الحياة هي التي تخلق الكائنات الإنسانية، بل إن الكائنات الإنسانية هي التي تخلق الحياة. ثمة بعض الروايات يجري الاحتفاء بها اليوم بوصفها الكلام المعاصر، تفتقر إلى الأسلوب وإلى اللغة، ويمكن لأي كان أن يكتبها. ذلكم هو الإبداع الغُفل: إذ لم يعد ثمة هوية ولا رؤية للإبداع.

إننا نشهد تحالفاً موضوعياً بين السوق والسلطة، وهو تحالف مخيف. لقد تغير العالم، كما تغير معنى الفلسفة والشعر والسرد الحكائي. استولت عليه الصحافة ووسائل الإعلام. يرى الصحافيون ووسائل الإعلام بأن الثقافة ينبغي لها أن تغدو هي ذاتها سوقاً. لذا فإن على الشاعر، بادئ ذي بدء، أن يفهم هذا الوضع وهذا التغير. يمكننا الآن أن نقرأ قصائد هي مجرد صناعة أنتجها تقني. لقد جرى نقل الآلة ووضعها على الصفحة بواسطة الكلمات. فغدت

القصيدة آلة أخرى. كما غدا الشعراء والكتاب أشبه بآلات، تصوّر فوتوغرافياً تجرد الإنسان من إنسانيته، بدلاً من أن تبدع رؤية تتجاوز هذا الفقد لإنسانية الإنسان.

إن أنسنة هذا الفقد لإنسانية الإنسان تكون بتجاوزه وليس بوصفه.

تشكل الكتابة التي يسمونها حديثة آلة عملاقة. آلة من الكلام. آلة كلمات. لا ريب في أنه سيظل هناك دوماً كتابة، وسيظل هناك دوماً شعراء وكتاب، وإذا لم يحذروا مما يجري فإن كلمة الإبداع سيكون عليها العفاء. سيجري إلغاؤها، ويوضع مكانها كلمة الإنتاج، وسنرى بعد ذلك إنتاج نصوص أدبية على غرار إنتاج المنسوجات، أو أية سلعة أخرى. ينبغي للأدب والفن، بوجه عام، أن يكونا الحياة ذاتها، فإذا لم يكونا كذلك، إذا لم ينعشا أرواحنا أكثر، على غرار الهواء والشمس، فسيغدوان على هامش الحياة.

في الشهر المنصرم افتتح في نيويورك، في متحف ميتروبوليتين معرض رائع حول الرسام فيرمير دي ديلف، وحول مدرسة دي ديلف. وافتتح في الوقت ذاته معرض حول جاكلين كينيدي، كان من الممكن مشاهدة

أحذيتها وأدوات زينتها، ورسائلها، وثيابها، و«فضلاتها» الشخصية. وقد توجب الوقوف في طابور طويل، مدة ساعتين اثنتين من أجل الدخول إلى معرض جاكلين كينيدي، في حين أن معرض لوحات فيرمير كان خاوياً تقريباً. فأنت تدخلين إليه مباشرة. إذ لم يكن هناك سوى بضعة أشخاص في الصف. لقد ظلت جاكلين كينيدي، بالنسبة إلى هذا الجمهور أكثر حياة من فيرمير.

ظهر عبر التاريخ مجانين كبار حلموا بإلغاء النقود. ذلكم حلم خارق. وأنا أحب أن أواصل هذا الجنون. فإذا أنت ألغيت النقود، فكل شيء يتغير، العلاقات الإنسانية، وكل شيء. ولكن وأسفاه، فما خلقه الإنسان، أعني النقود، يسحق خالقه. فالنقود هي التي تستحوذ عليه اليوم. النقود التي تعني الملكية، والحيازة والسلطة والحرب. لقد غدونا عبيداً للنقود، نكدّ من أجل الحصول عليها، ولكن دون أن نحصل عليها، فنعمل من أجل العمل، إنها تراجيكوميديا.

لقد أثبت العقل الاقتصادي بأنه هو الأذكى والأكثر فعالية من الفن، ومن الشعر، والأدب.

غير أن على الفن أن لا يستسلم. على كتابنا المعاصرين أن يعيشوا الآن أكثر وأن يفهموا. عليهم هنا أن يتسلحوا بالوعي. وأن يكافحوا. أعرف كتاباً يكتبون بناء على توصية. يقول لهم الناشر: «هذا معقد، ينبغي جعله أكثر سهولة، ينبغي تبسيطه، هذا طويل، ينبغي اختصاره. هنا، يمكن تأويله ضد هذه السياسة أو ضد الدين، ينبغي حذفه. هنا، في هذه الرواية، ليس هناك فعل، ينبغي إدخال الفعل...». هؤلاء الكتّاب ـ الذين ما عادوا كتّاباً ـ يقبلون كل ما يُطلب منهم! وهؤلاء الناشرون الذين يطالبون بمثل هذا الامتثال يخونون الحرية.

يقول لي العديد من أصدقائي: «هل تريد أن أتعرض للاغتيال من أجل مقال أو من أجل كتاب؟ لا، لا أريد، فحياتي أثمن من...». وقد غدت الرقابة الذاتية جزءاً مكملاً للكتابة الحالية.

أوه! لو كنت أكتب كل ما أعرف...

الجزء الثاني

الإنسان الحميم

الشعر

تنزع أعمالي إلى تجاوز التفاصيل للوصول إلى كل. والكشف عن المرئي واللامرئي في آن معاً. فإذا لمحت تفصيلاً ما فإنما ألمحه داخل كل، وضمن علاقاته مع الأجزاء الأخرى من الكل. ما يحتاجه شاعر ليس بناء علاقة مع القارئ وحسب. بل ومع الأشياء. بالإضافة إلى ذلك، فإن شيئاً ما مرتبط دوماً بشيء آخر، فهو ليس منفصلاً. لكي نرى، بنحو أفضل. غصناً في شجرة ينبغي رؤية الشجرة، فإذا عزلنا الغصن عن الشجرة فإنه يقوّض. أو يجازف بتقويض الرؤية ذاتها. ما يكتسي أهمية ليس ما أراه فقط. بل وما لا أراه أيضاً. ليس للشجرة سوى جانب واحد، ولكنه منفتح على كل جوانبها. إضافة إلى ذلك. فإنه ليس أفقياً وحسب. ولكنها عمودي أيضاً. أحب أن أصف عملاً

من الأعمال. وليكن رواية عظيمة، أو قصيدة عظيمة بأنه شجرة، أو بأنه شبيه بالجسد الإنساني. والعمل الذي لا يمتلك هذه العمودية. وليس فيه ذلك الانفتاح على الأفق، وليس له قشرة خارجية. هو عمل ضحل إلى أبعد حد.

ثمة كلمة في اللغة العربية تدل، في آن معاً، على الموضوع، وعلى الكتابة، داخل فضاء واحد. إنها كلمة «رَقيمة». وهذه الكلمة تعني برأيي. صفحة للكتابة، أو لأقل، فضاء يمكن أن نكتب فيه، وأن نرسم، ونلصق. وبالتالي، أن نجمع ونوحّد. أنا أميل إلى الذهاب شطر العمل الكلي الشامل، حيث يمكن لقصيدة أن تكون موسيقا، أو تاريخاً. لقد حاولت أن أخلق نصوصاً كتابية، ولكني حاولت أيضاً أن أخلق رسوماً وملصقات، وأشكالاً بلاستيكية. وأنا مقتنع بأن الروح إذا كانت موجودة فعلاً، فهي الجسد ذاته. والعمل الأدبي إنما هو شجرة، جسد كلي، كائن كلي. إنه جوهر. وهذا كله يعارض الانقسام والتشتت. ففي عمل أدبي يتصالح الإنسان مع الطبيعة، ومع نفسه، ومع عدوه. إنه نقيض العنف الذي ليس سوى ضعف وعجز.

في تصوري الشعري، لا بد لامرأة من أن يكون فيها جزء من الرجولة، من الذكورة، داخل كيانها، وداخل

حياتها. والعكس صحيح. لأن رجلاً يخلو من شيء من التأنث في حياته لا يثير الاهتمام. تلكم علامة على النقص، إذا تكلمنا أنطولوجياً. ألم يكن الإنسان مذكراً - مؤنثاً في البدء. ثم انفصل، بعد ذلك شطراه. وبدءاً من تلك اللحظة من الانفصال الذاتي، لجّ في البحث عن جزئه الضائع، الذي ضل عنه. ذلكم هو الحب كما يراه أفلاطون. وأنا أعتقد بأن أفلاطون هو أول من روى التاريخ. فلكي يكون إنسان حقيقي كائناً حقيقياً، عليه أن يعثر على جزئه المنشود، الضائع. هو ذا معنى الحب. فالحب، إنما هو الكمال النهائي.

إن الفرس التي امتطاها نبينا كي يذهب من مكة إلى القدس كانت خنثوية. وكان اسمها البراق. إنها وجه أنثوي فوق جسد رجولي. الجسد جسد فرس والوجه وجه امرأة. وهذا يذكرنا بأسطورة جنيّة البحر التي كان لها جذع امرأة وذيل سمكة.

إن جذر كلمة عقل في اللغة العربية هو عَقَل، ويعني (قيّد، حبس) فالعقل إذن، إن تكلمنا بلغة الاشتقاق، عبارة عن سجن. إنه عقال، حد، وهو يختلف عن جذره في اللغات الأوروبية. ومع مرور الزمن، أخذت كلمة عقل بالعربية المعنى نفسه الذي لها في أوربا، أي

معنى التعقل. ومع ذلك، فإن كلمة عقل، عندنا، وفي تقاليدنا، تعيقنا وتقيدنا. إنها عقبة أمام المتخيَّل، أمام الاستيهام، وأمام كل ما هو غريزي. وقد سعيت في كل تجربتي الفكرية والشعرية، إلى أن أحول العقل إلى غزال شارد. أن أسكب داخل العقل خمرة القلب، حتى ينتشي مثلما ينتشي القلب. وحققت الاقتران بين الجسد والروح. وحّدت العقل، وحّدت ما يسمونه العقل بما يسمونه القلب. فأنا أرى بأن على العقل أن يكون قلباً ثانياً.

لم نفلح أبداً في كتابة جسد المعشوق. وهذا من حسن الحظ. لأنك إذا ما عرفتِ شيئاً شعرت بأنك تتملكينه. والتملك ضد الحب. وفوق ذلك، ليس بمقدورنا أن نعرف شيئاً معرفة كلية ونهائية. ونحن عاجزون، بالأحرى عن معرفة شيء خارق كالجسد الإنساني. فالجسد ينتظر الاكتشاف دائماً. الجسد حركة، مثله مثل الحب. و الحق أنني ما استطعت يوماً وضع الجسد في الكتابة. فللتعبير عن الذات بالعربية يلزم الكثير من الكلمات. ولا سيما للتعبير عن شيء. وفضلاً عن هذا فأنت لا تعبّرين عن الشيء مثلما هو، وإنما عن صورة ذلك الشيء. لا تستطيع أي لغة

التعبير عن الواقع مهما بلغ سموها الشعري، فهي عاجزة بالأحرى عن الإحاطة بالجسد الإنساني، لأن هذا الجسد لا متناهٍ، واللغة لا تستطيع الإحاطة إلا بالمتناهي. بهذا المعنى، أقول، بأن الفعل الجنسي فعل فريد، عصي على التعبير. نحن نعيشه، ولكننا لا نعبّر عنه. يمكنك الحديث عما هو معاش في الجسد، عما هو مرئي فيه، عما هو دافع غريزي. ولكن جسداً إنسانياً هو بحر. متحرك دوماً، فهو يسبقنا. وهو يتبعنا. فكيف نتوصل إلى الإحاطة بهذه الحركة الخارقة، في حين أن موجة في هذا البحر لا تشبه موجة أخرى. بهذا المعنى أقول بأن الجسد يتأبى على التعبير، فكل موجة من موجاته فريدة. أما إذا تخيلنا، إذا أمكن لأحد أن يتخيل أو يزعم بأنه قد عبّر عن الجسد، فإن الجسد في تلك اللحظة يغدو أشبه بجثة. إنه يقتله في تلك اللحظة، ولا يعود الجسد جسداً حينذاك، لا يعود هو ذاته. إن الدين وحده هو من يدعي قول الأشياء بطريقة كلية ونهائية. ولكنه هنا يُظهر حدوده.

تبحث المرأة عن الرجل، ويعيش الرجل حياته باحثاً عن المرأة. غير أنه ليس ثمة على الإطلاق لقاء يمكن أن يقال عنه بأنه لقاء مثالي بين جسدين اثنين، بين

شخصين اثنين. نحن منهمكون دوماً في البحث، من هذا الجانب ومن ذاك. نبحث دوماً عن شريكنا، عن معشوقنا، وبالتالي نبحث عن هويتنا، فلا نبلغ أبداً ما نصبو إليه. لا نفلح قط في التعرف على من نتخيله، وهذا من حسن طالعنا.

الإخفاق يشكل جزءاً من نجاحنا. إنه الوجه الآخر للنجاح.

ترى، ما سبب هذا المكر لدى الاثنين كليهما، لدى الرجل، مثلما لدى المرأة. أعني أنه لا هذا ولا تلك يعترف فعلاً بدوره في الفشل أو بدوره في النجاح؟ ثمة شيء مموه لدى الاثنين، شيء ما ليس على ما يرام. لا أدري كيف أفسر لماذا يبلغ الرجل والمرأة إلى تلك المرحلة التي يغدوان فيها كاذبين من الجانبين؟ لماذا يعجزان عن تخطي كل العوائق وكل النواقص، ويقولان، صادقين، بماذا يشعران؟ إنه سؤال مطروح على الاثنين كليهما: هل أنتما. من هذه الجهة ومن الجهة الأخرى مرصودان للعيش في الكذب؟ وإليك السؤال الأخير: هل الكائن الإنساني عاجز عن أن يكون صريحاً؟ ولماذا؟

ربما تكون الكلمة «كذبة». ولكن ألا تكون، ربما، واقعية؟ ربما يكون الشعر ذاته كاذباً! ربما ابتكرت

الـديانات عـالم الكـذب الـذي لا يمكـن تجـاوزه، وإذن فنحن مرغمون على الكذب، مرغمون عليـه بإرادة مـن القدرة الإلهية. الكذب: هو كالريح، أو كالشمس، ولهذا فحين نكتب الشعر علينا أن ننـزع الأقنعـة عن الكـذب. والشعر الثوري ليس سوى شكل زائف للشعر. لأن على الشعر أن يمضي أبعد بكثير من الهدم و التدمير. ينبغي عليه أن يتجاوز الشعر الثوري، لأن هذا الشعر المسمى ثورياً هو شعر كاذب بامتياز. فقد ابتكر أقنعة جديدة، فيما هو يزيل الأقنعة. أقنعة، لعلها أشد مكراً وأعظم خطـراً. إن وظيفـة الـشعر هـي أن يهـدّم، أن يزيـل الأقنعـة. أن يكـون دومـاً إلى جانـب البلبلـة والإقـلاق والزلازل الثقافية. لقد مضينا بعيداً في هذه اللغة، لغة الـشفافية ونـزع البراقـع والتعريـة، أبعـد ممـا في لغـة الـشعر المعـترف بـه كـشعر ثـوري، ولكننـا في نطـاق مجتمعنا كنا مدانين بالكذب.

هل بمقدور الكلمة أن تقول كل شـيء؟ هـل يمكنـها ذلك؟ إن ما يضفي أهمية فريدة على الكتابة هـو أنها تهدم وتعيد البناء، وتنزع أقنعة الزيف. علينـا أن نكتـب من أجل تدمير كل كذب بغية تجـاوزه. فمـن دون ذلـك، لن يعود للكلام والكتابة أي قيمة. إذا لم تكـافح الكتابـة

هـذا الكـذب فإنهـا تخلـق أقنعـة أخـرى، ويغـدو الكـلام حينئـذ هـو القنـاع الكبير الـذي يتـوارى خلفـه مجتمـع بأكمله. ثمة حقب تكون الكتابة فيها أشبه بقنـاع كبير، والكتابـة العربيـة مثـال علـى ذلـك، لأنهـا لا تبغـي سـوى التمويـه و التقنيـع. لا بـد، ذات يـوم، مـن أن تـتم دراسـة الكتابة داخل المجتمعات بوصفها قناعاً. وإذا ما فكرت بكتـابتي فـإنني أجـدها أكثـر مـن اتهاميـة. فهـي تـدين بقـسوة، وتـسلط الـضوء علـى الأقنعـة. علينـا دائمـاً أن نشهد. علينا دائماً أن نتكلم.. ولكن هذا لا يغير شيئاً، حتى لو شعرتُ بأن الكتابـة مثلمـا أمارسـها هـي فعـل، ولكـن مـاذا يملـك فعـل الـشاعر في مجتمـع قـد خـان الشعر.

خلاف ذلك، نحن لا نملك إلا الانتظار بأن الطاقة الروحية التي يخلقها الشاعر ستغلب المستقبل.

الفصل التاسع

أصولي

نشأت في وسط لم يكن فيه ثمة فردية. الفرد متلاشٍ مختفٍ داخل كل. وهذا الكل هو العائلة. وكان الجميع قد أتوا من الكل الكبير. الأمة. والأمة مفهوم خاص بالإسلام. وكلمة الأمة في العربية هي مؤنث الأم. كانت علاقتي بأمي، وكذلك علاقتي بأبي، كما لو كنا وسط بحيرة أو محيط. والجميع يشكلون، معاً، جزءاً من هذا المحيط. من هذا البحر، من هذه الأم. لم يكن لي أية علاقة فردية بأمي. ولما غدوت يافعاً، وقرأت كتباً. اكتشفت من خلال قراءتي بأن هناك علاقة شخصية بين أم وابنها. قرأت كل ما كتبه فرويد. وما كتبه كان عالماً آخر مختلفاً عن عالمنا. لم يكن داخل الوسط الذي عشت فيه أي مظهر من المظاهر التي وصفها فرويد وكشف عنها في كتبه. فأنا لم أعانِ في حياتي، شيئاً من كل تلك العصابات

النفسية. كنا جميعاً مثل شجرة واحدة، وكنت أنا غصناً من أغصانها.

لم أعش طفولتي كما يعيشها الأطفال في المجتمعات الحديثة. فأنا ما عرفت قط سن الطفولة. منذ خطواتي الأولى دخلت معترك الحياة اليومية مثلما تعيشها القرية، حياة الحقول، والحياة تحت الأشجار، وفوق الدروب التي تقود إلى عيون الماء. وإلى الأنهار، وإلى الحقول، كي أعمل، أحصد وأبذر وأحرث الأرض. غدوت منذ نعومة أظفاري عاملاً. كنت أقوم بتلك الأعمال دون أن يكون لي أدنى علاقة خاصة، بالمعنى الغربي للكلمة، بأمي وأبي. لم تتعلم أمي القراءة، إنها أمية، ولكنني أشعر بأنها تثقفت بثقافة الحياة، وآلام الحياة، وعمل الحياة، والذاكرة. ذلك أن ثمة ذاكرة تلعب دوراً هائلاً لدى الأميين. كانت والدتي إذن مثقفة. وهي ما تزال على قيد الحياة، بعد أن شارفت على السادسة والتسعين من عمرها. إنها دوماً بصحة طيبة، تتحدث، وتمشي، وترى بنحو جيد، وقد جاءت مرة إلى باريس، ولكنها لم تحبها. كانت أمي شجرة بالنسبة إلي، شجرة ناطقة، نهراً. نهراً لم يتوقف عن الجريان. كانت، بالنسبة إلي جزءاً من الطبيعة، ولكنها كانت طبيعة حية، وبهذا المعنى فقد

أثّرت بي كثيراً دون أن تتفوه بكلمة. وكان والدي على النقيض منها. كان مثقفاً مطّلعاً. وهو الذي علمني دروسي الأولى، وأطلعني على الشعر الجاهلي، وعلى الشعر الصوفي، وعلى شعر ما بعد الإسلام. ولكنه علمني بنحو خاص الشعر الصوفي. كان هو من فتح لي الطريق إلى الشعر. وكان هو نفسه يكتب قصائد تقليدية. وأنا أدين له بثقافتي الأولى. في الثالثة عشرة من عمري لم أكن بعد قد ذهبت إلى المدرسة. كنت أمضي إلى القرية، وإلى الحقول. لم أكن أعرف حتى ذلك السن لا الكهرباء ولا المذياع. ولم أكن قد رأيت سيارة. كنت عنصراً من عناصر الطبيعة كلياً. مثل سحابة، أو شجرة. ولهذا أقول بأنني ما عشت طفولة، بالمعنى الحديث للكلمة. أما الآن، وبعد أن تقدم بي السن. فإنني أحاول أن أستجمع في خيالي شتات طفولتي وأن أكتشفها. وهو ما يثيرني كثيراً. فأنا أتخيل، على سبيل المثال، كيف أمضيت سنواتي الثلاث عشرة الأولى، والتي تشكل فراغاً. بالنسبة إلي. أحاول أن أرى نفسي، بعين الخيال، حين كان عمري سنة، أو سنتين أو ثلاث سنوات. وهو ما ليس سهلاً علي. فألجأ إلى أمي أسألها. ولكن أمي اليوم، ما عادت تذكر شيئاً. وقد استطاع بعض رفاقي في القرية أن

يوقظوا في بعض الذكريات حينما كنت في السادسة من عمري ربما، ولكن ليس قبل ذلك. وهكذا فقد انقطعت عن طفولتي. ولعل هذا النقص في الذكريات ينعشني ويرطّب أيامي. فحينما أحاول استرجاع تلك الطفولة أبتدع لنفسي جواً طفولياً، أواصل عبره طفولتي الضائعة. ويا له من تمديد مثير.

روى لي أحد رفاق الطفولة كيف كنا، نحن أطفال القرية، نتعلم الأحرف الهجائية تحت شجرة كبيرة معرشة، بإشراف شيخ معلم من معلمي تلك الأيام. حدثني رفيقي بأنني لم أكن أحب حضور تلك الدروس، فكنت أحتال على المعلم قائلاً له: «ليس معي خبز آكله، وأريد الذهاب إلى البيت لتناول الطعام» فكان يقول لي: «اذهب! ولكن عد بسرعة» ولكنني كنت أولّي الفرار، ولا أعود. مما جعل المعلم يفقد ثقته بي ويهددني بعصاه التي كان يهوي بها على أقدام الأطفال، كي يمنعني من الهرب. كان يعتقد بأنه سيفلح في إبقائي في حلقة دروسه، ولكنني كنت أحاول دوماً مبارحته، ومبارحة دروسه المملة. لم أكن أطيق أن أمضي ساعتين أو ثلاث ساعات، على هذا النحو، في تهجي الحروف وكتابتها. كنت أنفر من ذلك أشد

النفور. كان لدي إحساس بالحرية. الحرية إحساس، وخليق بنا أن نمتلك إحساساً بأننا أحرار. وقد كان ينتابني هذا الإحساس. لذا فقد أحببت دائماً أن أكون وحيداً وحراً.

كنت أكيّف علاقة جنسية مع الأرض. وكنت أباشرها. وأبلغ ذروة النشوة. خارقة هي قوة الطاقة الجنسية. لم يكن لدي أبداً، خلال حياتي مشكلة مع الجنس. كان الجسد، بالنسبة إلي، مثل الهواء والماء. إذا كنا أحراراً في رؤوسنا فحريّ بنا أن نكون أحراراً في أجسادنا. الفطرة مضادة للدين، لأن الدين ـ القانون مضاد للطبيعة، ومضاد للإنسان. وإذا لم تكن الحرية مادية حسية، فلن تكون أكثر من فكرة مجردة. كل ما كان يبدو لي جميلاً كنت أفعله، فالأخلاقية المطلقة عندي هي أن لا تؤذي الآخر على الإطلاق.

أمضيت طفولتي مع الطبيعة، عشت الوصال الجنسي في الهواء الطلق. ووسط نهر صغير. خلف قريتنا. كانت امرأة تكبرني سناً ترافقني في تلك النزهات. كنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. جربت ممارسة الحب مع الطبيعة. كان العشب وأفياء

الشجر تفتح صدرها لنا، كان ذلك فائق الجمال في الربيع. كنت أذهب كل يوم إلى تلك الخضرة اليانعة، وأتخيل جسداً أنثوياً مكوناً من العشب وكدر الأرض. وكان ذلك الجسد يانعاً جداً للوصال. فكنت أمارس الحب، حالماً. مع ذلك العشب، ومع تلك الأرض ذوي الأشكال الخيالية المثيرة. ربما كانت الأم، بالنسبة إليّ هي الطبيعة. ولكن وأسفاه! لقد مضى كل ذلك وانقضى. ودمرت تكنولوجية عصرنا الزمن الذي كان فيه فلاح صغير مثلي ينتشي حين يحس نفسه خيطاً في نسيج ما يسمى الطبيعة.

ما كان يشدني إلى والدي، رجل الدين، ليس الدين. وإنما ذلك الإخلاص، وتلك الأصالة اللذان كان يتمتع بهما. لم يكن قط يقول لي: افعل كذا، ولا تفعل كذا. كان يقول: «فكر قبل أن تفعل شيئاً، قبل أن تتورط. من السهل أن تتخذ قراراً، ولكن قبل ذلك. عليك أن تفكر بعمق». هذا ما كان يقوله لي دائماً. لقد علمني ما هو جوهري: اختيار طريقنا بحرية.

وهكذا تجاسرت.

اخترت اسماً حررني من هويتي الدينية. وفتح لي أفقاً طارئاً وغير متوقع في مجتمعنا. وما أزال أسأل نفسي حتى اليوم، كيف اتفق لي أن أفلحت في ذلك.

لقد حررني هذا الاسم، أدونيس، من اسمي، علي، ومن انتمائي الاجتماعي المغلق بأقفال الدين. وانفتحتُ، من خلال هويتي الجديدة الحاسمة، وغير النسبية، على كل ما هو إنساني. لقد اخترت هوية مطلقة. وبدءاً من هذا الاختيار لم يعد لي هوية جاهزة أو مقررة مسبقاً.

بدأت خلق هويتي حين بدأت خلق عملي الأدبي. لقد وعيت أبعاد هذا الاسم الخلاق. لم أكن واعياً بذلك في البداية. ثم و اصلت تقدمي اللاواعي إلى أن انتهيت إلى اكتساب الوعي به.

قادتني هذه المسيرة إلى المثابرة على خلق هويتي. وتعلمت من تلك التجربة بأن الهوية، إنما ينبغي خلقها وإعادة خلقها باستمرار، ولا ينتهي هذا مع الموت، وعلى الأخص، حين يخلف أحدنا وراءه شيئاً ما بعد موته.

بعد الموت تكون النصوص المكتوبة مفتوحة على اللانهاية. والزمن هو الذي سيحددها. ويعاود تحديدها. فالهوية إنما هي حركة، ولا يمكن أن تكون ثابتة متجمدة.

والآن، وأنا بعيد جداً عن هويتي الأصلية، فإنني أحاول نقل تحرري إلى إطار آخر. أعكف على خلق أسس لثقافتي العربية، من أجل البناء عليها. تحدوني الرغبة في انفتاح ثقافتنا العربية على هذا النوع من الهوية الحرة.

وما دام كل شيء عندنا مرتبط بالدين، فإن الدين يهيمن على حياتنا بأسرها. ليس الدين الإسلامي هو الطقوس والعقيدة حسب، إنه اللغة أيضاً. اللغة ثقافة، وهي قيم أيضاً. وحريّ بي إذن أن أحررها عبر تحرري الخاص.

حينما شعرت بأنني حر، بدأت أدرك بأن الأنا لا يملك أن يعرف ذاته، إلا من خلال الآخر. فلكي أفهم الشرق على نحو أفضل بات علي أن أفهم الغرب. كذلك فإن الغرب لن يكون بوسعه أن يعرف ذاته إلا إذا فهم الشرق. فالهوية الثقافية، مثلها مثل الحب، إنما هي حوار، تحالف بين الأنا والآخر. ليس الآخر ضرورة للحوار وحسب، وإنما هو عنصر مكوّن للأنا. واللغة هي التي تصل بين اللغات.

الفصل العاشر

الحب، الجنس والإبداع

الفعل الجنسي هو سرّة الكون. يلتقي في الفعل الجنسي ما يسمى المادة بما يسمى الروح. ولما كان فرج المرأة هو مركز الكون، فإن الفعل الجنسي يحقق الاتحاد الوثيق بين ذينك الضدين: مادية العالم وروحانيته. ما من تجربة أخرى، حسبما أرى، يمكنها أن توحد بين هذين الضدين ما خلا الفعل الجنسي. يمكن أن نتخيل بأن نوعاً من الجنون يحقق ذلك الاتحاد. ولكنني في ريب من هذا. فالجنون يصطدم باللاممكن، في حين أن مأثرة الحب هي، بوجه التحديد، ما يجعل اللاممكن ممكناً.

الحب فعل يتم فوق الأرض. إنه محسوس، وجسدي. ثمة في الحب طعم للّذة الحسية مطعّم بنشوة روحية. هذه التجربة التي تدقّ على الوصف لا

يمكن أن نعيشها خارج الحب، لذلك فنحن لا نستطيع أبداً التعبير عن فعل الحب، بنحو كامل وكلي، على الإطلاق! هل بإمكاننا أن نلمس النار، أبداً! ولكننا نعيش النار. فالعصي على التعبير يتعذر التعبير عنه. يعتمد التعبير الشفوي، والكلمات على الإدراك. وكل ما يتأبى على الإدراك لا تحيط به الكلمات. ذلكم هو حال الإبداع الأدبي والتشكيلي والموسيقي. فهو دوماً دون ما يعبِّر عنه.

ليس بوسعي أن أرى الجسدي خارج نطاق الروحي. فنحن لا نمارس الحب بالجسد، وإنما بالروح، ما دمنا بشراً، وما دام الكائن البشري جسداً وروحاً في آن معاً.

يبدو الفعل الجنسي كما لو أنك تمشين وسط ظلمة الكون.

ولكن جسد المعشوق أشبه بنور ساطع وسط الظلمة. هذه المرأة ـ النور إنما هي غاية ووسيلة، في الوقت ذاته. غاية في حدود الفعل الجنسي ذاته، ووسيلة للإحساس على نحو أعمق، لفهم سر الكون حق الفهم.

وسر الكون هذا لا بد أن يكون إنسانياً، لأن جوهر الكائن الإنساني، إنما هو تجاوز تناهيه. فالإنسان متناه، ولكنه لا متناه في تناهيه. فهو يتجاوزه، على الدوام، وها هنا نعثر على سر الفعل الجنسي وسر الحب.

هناك جسدان اثنان في الظاهر، ولكن، في العمق، فإن فعل الحب يعني التوحد مع الكون، عبر الجسد، إنه يعني التوحد مع جوهر الكون.

ليس الرجل من يملك مفاتيح سر الحب.

إنها المرأة.

لأن المرأة هي الأم، لأنها هي الأرض، فهي التي تتلقى، وهي التي تعطي إذن. أما الرجل فهو الريح.

المرأة هي الأرض، فهي إذن من يفهم أفضل من الرجل، وهي التي تعطي أكثر منه، إنها إذن ومن حيث المبدأ، على حق دوماً.

ليس ثمة لذة دون ما هو فاجع، ولا فرح دون ألم، لماذا نبكي إذن في ذروة الفرح؟

لذة الوصال مأساوية دوماً، فرائحة الموت تنبعث في كل فعل حب. وشبح الموت يتراءى في كل فعل حب.

تنبعث رائحة الموت، لأن الفعل الجنسي ليس من الماضي على الإطلاق. إنه المستقبل. والمستقبل، إنما هو الموت في ذاته. من هنا ينبع ما هو فاجع مأساوي في اللذة. في اللذة الجنسية. هناك نساء يقلن لك خلال الحب: «لقد قتلتني، جعلتني أموت!»

الحياة امرأة حبلى بالموت دوماً. والغريزة الجنسية، كما أتصورها، مرتبطة، جوهرياً، بالموت. نحن نتغير دائماً. وفيما نتغير فإننا نموت، ونحن أحياء. ولهذا فإن الموت حاضر دوماً في تجربتي، وفي كتابتي. ومن لا يشعر في سريرته بالموت لا يمكنه أن يشعر بالحياة. فمن أجل أن نعيش حياة أفضل، علينا أن نحمل إحساساً عميقاً بالموت. إن جسدين اثنين لا يمكن أن يناما، أحدهما إلى جانب الآخر مرتين، لأنهما يتغيران.

إذا كانت هناك حالة لا يعود الموت والحياة فيها متناقضين، فهي نشوة الوصال العشقي. والإبداع، أيضاً، فعل من أفعال الحب، لا يعود الموت والحياة فيه على طرفي نقيض.

لماذا لا يمكن لحب أن يستمر؟ ألأن جسداً خاصاً بجسد آخر ليس كافياً لاستمرار الحب؟ إذا أنت أحببت طوال عشر سنوات جسداً واحداً فإن الحب

يغدو عادة. فالحب الزواج ـ المنزل ـ الأبناء ليس سوى مؤسسة. أما الحب، دونما زيادة، فهو نور. إنه بحث، من أجل رؤية أفضل، من أجل عيش أفضل. كيف يمكننا أن نكون عاشقين وأصدقاء؟ كيف يمكن لعاشقين اثنين أن يكونا متزوجين عاشقين؟ ثم يظلا صديقين في الوقت ذاته؟ كيف؟ يمكن لهما ذلك إذا انفتحا على اللامتناهي، أحدهما والآخر، ولم يخف أحدهما شيئاً عن الآخر، وقالا كل شيء. غير أنني ما رأيت قط أزواجاً على هذا النحو. ليس هناك حياة مقدسة بين الأزواج، فما معنى تلك الحياة العشقية التي يقودها الكذب؟ أية حياة هذه؟

إنني آزعم بأن جسد امرأة أو جسد رجل يظل لغزياً. فلا فرويد، ولا يونغ، ولا لاكان قد لامسوا السر قط. وهذا أفضل. لأن فهم الجسد على نحو حاسم يتناقض مع الجسد ذاته. أنا أرى بأن جسداً إنسانياً يظل عصياً على الفهم فهماً نهائياً. فالجسد هو الظلمة، هو المجهول، هو الليل. إن جسداً إنسانياً ينتظر دوماً التعرف عليه. ينتظر اكتشافه، لأن بوسعه أن يولد كل يوم من جديد. فهو لا يولد مرة واحدة وإلى الأبد، بل إنه ولادة جديدة مستمرة. حتى في مرحلة الشيخوخة. ولكن كل هذا قد أدانه الدين، لا بل قتله.

والجسد ممثل على المسرح، في الوقت ذاته. كل الأحداث تمر من خلال الجسد. فهو يعيش كل حدث، يشارك في كل حدث. إنه هو ذاته الجرح والسيف الذي يجرح. لذا ينبغي دراسة الجسد، فهو دوماً بانتظار إعادة التحديد. ينبغي أن نسعى إلى رؤيته بطريقة جديدة، بعيداً عن الكليشيهات، بعيداً عن العادات الدينية، بعيداً عن الأفكار، وعن علوم السوسيولوجيا، وعن التهيجات الشبقية، وعن التحليلات النفسية. ينبغي تجديد النظرة إليه، خاصة وأننا بدأنا الآن بابتكار جسد الكتروني، شبيه بالجسد الإنساني من الخارج. أما من الداخل؟ ما من جسد مصنوع على الإطلاق يمكنه أن يحل محل الجسد الذي أبدعته الطبيعة. ربما سيتمكن الجسد الإلكتروني، ذات يوم أن يبكي وأن يضحك، ولكنه لن يستطيع أبداً أن يمارس الحب.

ليس بمقدور الإنسان الآلي أن يحب. يمكنه أن يرتبط بأحد، بسيده، أن يؤمر ويطيع، ولكنه عاجز أن يرتبط بجسد آخر، عبر فعل جوهري كالفعل الجنسي، كفعل الحب.

لست أفهم أولئك الذين يقولون بأن الفعل الجنسي إنما يُسقط المرأة عن عرشها. إذا أحببنا امرأة حقاً،

فعلينا أن نفهمها بعمق، وأن نكون مرتبطين بها أوثق ارتباط، والفعل الجنسي هو الذي يساعدنا على ذلك. يمكنني فعلاً أن أكون صديقاً للمرأة التي أحبها، إذا كان جسدي صديقاً لجسدها.

يضعنا الحب في حال من الصحو دائماً، ولكن ليس من السهل البقاء في حالة الصحو هذه. وأغلبية الناس لا تطيق ذلك. وهي تفضل أن تعيش في حالة السهو.

إن جسداً أنثوياً. هو بالنسبة إلى الرجل غاية في الثراء. والحلم الأخير لرجل إنما هو امتلاك جسد أنثوي. وإذا أخفق الرجل وأبدل امرأة، واتجه نحو أخرى، وامتلك جسداً أنثوياً جديداً. فليس ذلك من قبيل الدونجوانية، ولا من قبيل التقلب أو الهوس الجنسي. ولكن ببساطة لأن الرجل لا معدى له عن امتلاك جسد أنثوي. فهو لا يستطيع العيش من دون جسد الآخر. وهكذا يظل أسير البحث عن جسد يمنحه الإحساس والوجود.

يقول مارلو في مقدمته لرواية (عشيق الليدي تشاترلي): «لدى المرأة إحساس بأن وجودها كائن داخل فرجها».

وأنا سأقول بأن الإحساس بالوجود لدى الرجل أيضاً، هو أن يكون محتوى أو مغطى بفرج المرأة. ودون ذلك، لا يشعر بأنه موجود فعلاً.

أن تحب فهذا يتطلب منك سَورة عارمة من الاحترام. فالحب ثقافة حقيقية. ولا بد للمرء من أن يكون موهوباً كي يحب. لذلك فإن كثيراً من الناس لا يحبون.

إن رجلاً أو امرأة يهب حياته، أو حياتها لآخر، وبعد أن يغادر محبوبه الأول أو تغادر هي مؤقتاً. وينام أو يحب في مكان آخر، ثم يعود إليه بعد سنة أو سنتين، يعود إلى محبوبه الأول أو محبوبته الأولى، فلن يعود بإمكانه أو بإمكانها أن يحب الأول الذي غادره ولا الثاني.

أنا أعتقد بأن الحب أشبه بوردة، لا يمكن أن يدوم طويلاً. لذا ينبغي أن نحب الحب أيضاً. ينبغي أن نعاود خلق الحب على الدوام. وإذا ما بلغ رجل وامرأة هذا الطور من الحب، وصارا قادرين على أن يخلقا الحب ويعيدا خلقه باستمرار، فإن الحب حينئذ يمكن أن يدوم. ولكنهما إذا لم يلحا فإن الحب آيل إلى

التلاشي، وسيسعى كل منهما للعثور على حب آخر، لأنهما لا يستطيعان العيش من غير حب.

ولكن لفرط ما نحب يمكن أن نموت، وأن نموت، يعني أننا لم نعد نحب.

نحن اليوم نعيش في عالم يتظاهر بالحب، ولا يجيد إلا التظاهر بالحب. نعيش في مجتمع يقتل، في كل لحظة، كل ما هو إنساني، وحينما يُقتل الإنساني، يُقتل الإبداع. إن كل الإخفاقات التي نراها في العلاقة بين الرجال والنساء، في مجتمعاتنا الحالية تنشأ من إيديولوجيا التملك، من الصراع على المال، ومن الحقد الاجتماعي. إنها مجتمعات معادية للحب، معادية للحساسية الإنسانية. وهي تعيش على امتداد جميع القارات، تعيش مسحوقة، مذرّاة.

لا يحقق رجل وجوده من دون امرأة. وإذا ذهبتْ بعيداً، فإن الرجل هو المكبّل بالقيود. المكبل الحقيقي، وليس المرأة. الرجل مكبل بقيد مزدوج. لأنه هو الذي يقود المجتمع، ولأن هذا المجتمع هو الذي يحرمه من علاقته الجوهرية مع المرأة. لذلك فإن الرجل، كما يبدو، موشك على أن يفقد جسده، أجل، حتى جسده.

إن جسداً من الأجساد هو توق، هو بحث عن الذات. وهذا الانشطار الذي يسمى دينياً جسد ـ روح إنما هو انشطار بغيض، زائف وواهٍ. فالجسد هو الملموس والمحسوس. هو المعاش. إنه الجانب المادي من العالم. فهو إذن من يملي حتماً. على ما يسمى الروح سبيل البحث.

لكل جسد قانونه. كل وصال. وكل حب، إنما هو فريد. والجسد بحاجة إلى كثير من الجسد، ليس من أجل الإرضاء الذاتي، ولا من أجل إرواء الحاجة، ولكن من أجل أن يعرف ذاته. لقد وُهبنا الحياة مرة واحدة وإلى الأبد، وعلينا أن نعيش تلك الحياة. ولكننا لا نعيش إلا بالجسد. وما أسميه بالفعل الجنسي، إنما هو صداقة بين جسدين. لذا ينبغي تأويل هذا الفعل بوصفه فعلاً مفكَّراً به. فعلاً مفعماً بالحياة. ينبغي أن يفكر الجسدان، أحدهما بالآخر.

إذا نمنا مع امرأة خارج وصاية المسجد أو الكنيسة أو الكنيس، فذلك عمل سيئ، أما إذا كنا تحت رعاية المسجد أو الكنيسة أو الكنيس. فهو عمل صالح. كأن الدين قد خُلق أساساً لاستعباد الإنسان.

فأن نحب، وأن نمارس الحب، فليس في هذا خطيئة.

الفعل الجنسي هو الفعل الأعظم فذاذة في حياتنا، لأنه الفعل الوحيد الذي لا ندري فيه إن كنا أحياء أم ميتين. فالحياة والموت يمتزجان لدى اتحاد عضوين جنسيين.

وأنا، كشاعر، أنام مع اللغة، أشعر بأن اللغة هي حبي، أشعر بأن كل كلمة هي امرأة، هي اشتهاء جنسي، هي حب. وهذا كله متصل بالنشاط الجنسي. لأن الاتحاد، بمعناه الأرقى هو الاتحاد عبر الوصال الجنسي، فالشعر إذن هو فعل جنسي. ليس الجنس كل شيء، ولكن الحياة تفقد طعمها دون الوصال. فالوصال، إنما هو كالشمس، أو كالتنفس.

ليس ثمة جسد يشبه جسداً آخر خلال الحب. إن جسد امرأة هو عالم جديد على الدوام. وهو على أهبة الاكتشاف باستمرار. والفعل الجنسي هو بدء دوماً، فحين تمارس الحب تشعر بأنك تموت حقاً، وأنت حي، وفيما أنت تموت تحيا حقاً. فلا الإبداع ولا الشعر يمنحان هذا الشعور بالخلود. فحين تلج إلى داخل الآخر. تشعر بأنك تلج داخل اللامتناهي. تشعر بأنك داخل جسد آخر غير جسدك، وبأن هذا الجسد

هو جسدك، فلا تعود أنت ذاتك. إنه شعور المرء بالتجرد من الامتلاك، دون أن يتجرد من امتلاك هويته. فحين أموت داخل جسد معشوقي، أشعر بأنني أكثر حياة مما في أي يوم من الأيام. وأنا لا أختبر هذا الشعور إلا في الوصال الجنسي. من هنا تنبع أهمية تلك اللغة الفيزيقية لجسد المعشوق. ومن لم يختبر هذا الشعور، فما من نسمة حياة تسري في جسده. لأن جسده جسد عادة، أو جسد اجتماعي، أو جسد تجريدي، ولكنه ليس جسداً حياً. نادرون هم الكائنات الإنسانية الذين يعيشون حقاً هذا النوع من الوصال الانصهاري. أما البقية فيعيشون بالأحرى وصالاً مشوهاً فاسداً. تلكم هي الحيوانية أو الآلة، أو العادة.

ما بين الله والشيطان ثمة خيط. وما بين الملاك والشيطان ثمة خيط رفيع جداً جداً. ولكن ما بين الوصال الجنسي الذي أتحدث عنه، وبين الجنسية البهيمية الشائعة ثمة هوة يتعذر اجتيازها، ويتعذر سبرها.

أن تفعل الحب، فذاك فن رفيع، لأن معرفة المجهول، إنما هي فن. أن تكتشف كل مسام من

مسامات جلد المعشوق فهذا يعني أنك تكتشف اللامتناهي. لأن جسد المرأة قارة لا تنتهي. تعيش مع جسد سنوات وسنوات، تعرف كل ثنية من ثنياته. وفي كل يوم تجد ذلك اللحم جديداً. إن هذا الجسد و احد، وهو دائماً آخر. هي ذي الهوية الجوهرية. فالجسد الإنساني خلال الحب. وهويته هما جسدان اثنان. على غرار الأنا والعالم. فمن دون العالم لا وجود للهوية. والجسد هو دوماً اثنان.

لا يكمن عسر حضارتنا في غياب الجسد. وإنما في ابتذال العلاقة الجنسية. فالفعل الجنسي يشكل جزءاً من المساحة الشاسعة للعلاقة بين جسدين. إنه ذروة رحلة قصية. يقوم بها اثنان إلى داخل سر اللحم. لهذا فإن ابتذال العلاقة الجنسية. إنما هو قطعها عن ثقافة كاملة. عن كل حضارة الجسد. إنه النظر إلى الفعل الجنسي. بوصفه غاية بحد ذاتها. في حين أنه يشكل جزءاً من كل. ويرتبط بمصير النوع البشري وبالكون. وبمأساوية الإنسان المرصود للموت. لا يدفع الفعل الجنسي ما هو مقدَّر على الإنسان. فالإنسان فانٍ، ولن يهرب قط من قدره. ولكن الوصال بين عاشقين يسمح بامتلاك حياة. إن لم تكن أطول، فهي، على الأقل. أرحب وأثرى. إن الاتحاد الجنسي بين

الرجل والمرأة هو الحياة، بمعناها الأعظم حقيقة والأشد اتساعاً، وأنا لا أفصل النشوة الجنسية عن الشعور عاجلاً أو آجلاً بأنني قد غدوت في تلك اللحظة غباراً. أنا أموت شيئاً فشيئاً كل يوم، وإذن فإنني حين أحب أكسب نصيباً من الحياة كل يوم. أنتزعه من قبضة الموت.

لكي يلتقي جسدان يتحتم عليهما أن يمتلكا إحساساً رفيعاً. لقد خلق الله الإنسان على صورته. فالإنسان نواة الكون. ولكنني لا أعتقد أن الخالق هو الذي قال ذلك عن نفسه، وإنما الإنسان. وقد جاء في المأثور: للوصول إلى ما يسمى الله لابد من المرور بالمرأة، والسعي الحثيث إلى امتلاك ثقافة رفيعة.

فأنت تكون إنساناً حين تعي الجانب الإنساني من طبيعتك. تعي أنك لست حيواناً. ولكي تمتلك إذن وصالاً جنسياً على مستوى عظمة الإنساني، عليك أن تمتلك روحاً عظيمة، ورؤية عظيمة، وإبداعاً عظيماً. ولكن ذلك ليس في متناول جميع البشر. إنه نوع من الصعود نحو ذروة الوجود، غير أن الكائنات الإنسانية ليست سواء في الصعود. وبهذا المعنى أقول بأن الحب إبداع.

إذا ما بحثت عن الخالق فاذهب إليه عبر المرأة. فهي النور الذي يصل السماء بالأرض. وكي تتوصل إلى جوهر الكون، عليك أن تمر بالمرأة، أي أن تمر بالحب.

ابتدأ تدمير الجوهر الإنساني مع الانقسام إلى جسد وروح. وهذا الانقسام من فعل الدين، وأنا أقف ضده بكل حزم. هناك انقسامات أخرى، على غرار ما يسمى العقل والقلب. ولكن الكائن الإنساني، في رأيي، هو كلٌ لا يقبل الانقسام. ليس ثمة معيار داخل الجسد الإنساني يقول: هنا يبدأ القلب، وهنا يبدأ العقل، وهنا يبدأ الشعور الديني. ليس هذا سوى هذر بغية تسهيل تحليل معين. وليس من أجل قول الحقيقة. فالحقيقة هي أن الكائن الإنساني لا يقبل الانقسام. وأن العقل يمر من خلال القلب، والقلب من خلال العقل.

خاتمة

وإذن؟

فإن العمل، إن كان ثمة عمل، ينبغي أن يكون حلماً. واليد خلقت الحلم أيضاً. لا يجوز، إذن فصل الحلم عن الحياة العملية. وما نوجه إليه النقد هو أن اليد غدت آلة أخرى، بدلاً من أن تغدو حلماً جديداً.

أتخيل أن في داخلي، أنا ذاتي، عدواً لي، كما لو كنت منقسماً إلى اثنين. الجانب العدو يتكلم مع الجانب الصديق، يتحاوران. ليس العدو خارجياً فقط، ولعل العدو الخارجي هو الأضعف، كما أنه لا يثير الاهتمام. ما يثير الاهتمام هو العدو الرابض في داخلنا، نحن أنفسنا. أما أنا، فأقول لأعدائي، لا تغادروني، فأنتم أصدقاء لي أيضاً. وهم عديدون في داخلي. وأنا أقول لهم: ابقوا! لا تغادروا! والواقع أن ما يزعجنا في ثقافتنا السائدة هو أنها لا تضم سوى أعداء بلهى! في

حين أننا بحاجة إلى أعداء أذكياء. إن مبدعاً عظيماً يقتضي عدواً عظيماً. إذ لا بد من أن يكون العدو في مستوى المعركة. غير أن الأعداء الحاليين، للأسف، هم في الغالب أعداء صغار تافهون. إنهم ليسوا شيئاً على الإطلاق. مما يحط من مستوى الثقافة ومستوى الحوار. الأعداء الخارجيون والداخليون العظام يساعدونك في معرفة ذاتك، بنحو أفضل، ويمكنهم، أيضاً، أن يفتحوا لفكرك آفاقاً أخرى. لذلك فأنا أقول: ليكن أعدائي العظام عديدين.

الجزء الثالث

شعر أدونيس

بقلم شانتال شواف

هل تتوافق الحقيقة مع الحضارة الحديثة التي نلج أبوابها. طوعاً أو كرهاً، ونحن على عتبة القرن الحادي والعشرين: حضارة العولمة.

ثمة تهجين ثقافي يجري على قدم وساق. فاللغات. والعصور، والمدن. والديانات. فيما تتشظى. وتتناشز. وتتناقض. وتتزاوج. على غرار الصخب والسديم اللذين يلفّان مجتمعاً ينهدم وينبني من جديد. ما تنفك تختلط وتتمازج في أعمال أدونيس. يشكل شعر أدونيس قطيعة تحجب عنا كل ما نتوقعه منه. ليتجلى حيث لا نتوقعه. وهو يفاجئ الحاضر. ويُدخل السرعة. وتسارع التحولات الجارية ضمن تعبيرات مقتضبة. متصادمة. نبوية. مبتورة. وإضمارية. وهذا الشعر يُحلّ اللغة محل الأركيولوجي أو المؤرخ أو الروائي أو السياسي أو الفيلسوف محولاً إياهم إلى تجربة شعرية. وهو يمتلك كثافة الرعشات الصوفية. أما صوره المتجاورة و المبهمة والاتهامية فتتجابه محرضة متحدية.

فيما يصغي أدونيس بدقة متناهية إلى جريان الزمان فإنه يدفع باتجاه العودة إلى الأصول، وإلى علم النقوش، والكتابات المسمارية في الشرق الأدنى القديم، وإلى الهيروغليفية، وإلى زواجات الآلهة، لكي يضرب صفحاً عنها بعد ذلك.

إنه يتجذر داخل التراث لكي يجتثه على نحو أفضل، ولكن بعيداً عن التدمير الهمجي لما هو نفيس. هذا الفنان المتبحر يتأمل بعين كاميرته المستقبلية التراث المدنس للعصور القديمة، تلك العصور التي كأنما عهدت إليه وحده بالانتقام لها.

وتحت تأثير هذه الطاقة التجديفية، فإن المستقبل يكتسح الماضي ويتحداه.

إن مصر الفرعونية، وسومر، ومملكة أوغاريت، والألفبائية الأولى في العالم، والألفبائية الفينيقية، واليونانيين، والعرب، والأكاديين، والعبريين، يتعايشون معاً من أجل تصفية حساب مع الجنسيات، ومع الصلوات، ومع الإمبراطوريات، ومع الارتقاءات إلى الذروة والانحطاطات إلى الحضيض، ويتوصلون إلى صهر وتذويب آلاف السنين ضمن عملية إعادة تشكيل للقيم، وإعادة بناء علاقة جديدة مع المكان.

بعد أن تخلى أدونيس عن هويته كواحد من أبناء الريف السوريين الصغار، صنع تحت اسم إله وثني

هوية كونية وثورية. واستطاع أن يمنح أناه الفردي صوت أنا منفصل عن الذات، وجماعي، متوصلاً إلى إلغاء الحواجز التي يتواجه عبرها الشرق والغرب. ومن خلال رصده التلسكوبي لعوالم على وشك الانقراض يتردد الصدى المروِّع والنيزكي للفناء الذي أطبق سابقاً على الكون، وسيطبق عليه أيضاً. ثمة منتخبات ونبذ بكاملها، من الميثولوجيا، بعضها في مقابل البعض الآخر، وضمن عملية تعديل هائلة للإرسال، تعيد كتابة الأخطاء والجرائم التاريخية، وتحولها إلى إيقاع متواصل، تتجابه فيه الآداب والميتافيزيائيات، متلهفة إلى دفن الرماد والخرائب، عبر إدانة رؤيوية للتاريخ، من أجل انطلاقة جديدة، ومن أجل فرصة أخيرة. من أجل هذه المرحلة من نزع الأوهام عن العالم الطاعن في القدم، حيث ينبغي لنضج الفعل أن يجدده ويبعث فيه الحياة.

إن هذا الإبداع الكوني، المكتوب بالعربية، قد شكل قطيعة مع الحضارة الإسلامية، التي نشأ فيها. يذر أدونيس النسيان في قلب الذكرى. ويدير ظهره للمدرسة الشعرية القديمة، دون أن يتنكر للغته الأم. إنه يرتاب بكل إغواءات الانتماء، وبكل المجتمعات. ويركن إلى العقل والديالكتيك والإيجاز والانسحاب، لكي يعلمنا، لكي يلغي تربيتنا البالية. وهو لا يني

يوقظ السر. ويرحل وسط التشنج والارتعاش، ويحتفي بالعقل أيما احتفاء.

وبإمعانه التفكير في خريطة السر، فإن المفكر الكبير. المفكر الشمسي يرتدي الحداد على نسغنا الأصلي.

الفهرس

لوحة الغلاف لأدونيس
صمم الغلاف: جمال سعيد

طبعة ثانية_2006